أمين تقي الدين
شاعر وانسان

بقلم الياس خليل زخريا

★

ما عرفته ولا قرأته
ولا احببت ان اقف اليوم متحدثاعنه
في مهرجان ذكراه
لقد ورد أسمي في بطاقة الدعوة
خطأ اسود على الخطأ الابيض
وانها لجراة مستجرئة ....
يدعون للخطابة ،
للعلعة الحناجر ،
لهلهلة القوافي .
لتصايح الحروف والكلمات
يدعـون
للتكريم المنبرى
اناسا مثلي لا يعرفون الغائب الغائب
ولا تراث الغائب الغائب
اناسا مثلي لم يربطهم به
نفس الدم
ولا نكهة الحرف
ولا لقمة عابرة من زاد الجبل
أناسا ، أناسا مثلي ، لم يشدهم اليه ،
الى ولده
الى اهل بيته
اهل عشيرته
ود الجيرة ،
فيء الرفقة ،
رواق الحي ،
درب البيت ،
شأو من شأو الكلمة في مدات النغم
ارنان متقطع في دهشة الوتر على
تمزق الاصابع
وتمزق الاضالع

ثـم
اني ، أني لي ، ان اعرفه
وقد قيل :
انه كان في أوائل العتمة
منذ فواتح جيلنا
منذ بصيص طفولتنا
.... ودراستنا
كان في جيلنا مطلع الجيل
تأهبت فيه العزيمة ، وتكونت الذات
وانصهر الخلق ، وتصدر الوفاء

ونهضت الفصحى ، ام اللغـات ،
نهضتها المتمردة العجيبة
من كثافة العياء ، وكثافة الغبار ،
وطبقات ، طبقات
من زخرفة الركاكة وخمول الرواسب
وقيل :
انه كان واحداً كولي الدين
.... واحداً كحافظ
.... واحداً كالشميل
.... واحداً كانطون الجميل
واحداً واحداً كألف واحد
وتحشد الصور على الصور
وتتجاول الاشباح في الاشباح
ويتوارى كنتف الضباب من يتوارى
ويثبت في قلاع الجيل من طلائـع
الجيل من يثبت
ويستقر في قرار الزمن من يستقر
... بعض العبارات
... بعض الحكايات
... بعض القوافي
وكآبة متأصلة في كآبة
وحنين متحفز في حنين
كأن الكآبة مرض الجيل
... ودواء الجيل
متغلغلة في حبات ذاته
منسلة انسلالها في مطاف أحلامه
ومقاصد أمانيه
وواعجباه !!
ما جرحت الكآبة فـي ثغره الباسم
بشاشة ثغره
لم يعكر الحنين فـي وجهه المتعب
طلاقة وجهه
وقيل :

انه كان في نفسه خدنا من أخدان
الليالي السود
يخبيء في مخابيء الليل همه .
ويضن بهمه عن مسامع الصباح
ضنانة الرضى
وضنانة الحرمان
يواريه في خليات نفسه
يواريه كما يواري الزمن الفصول في
طيات مفاصله
ويقف دونه :
بالخلق الشديد
بثبات اليقين
بترابط الصبر
بكتم المتجاهل
بتمرس الالفة
بالجبهة اللبنانية من على
الطربوش الاحمر

اذا وطنيـة باهـت بقـوم
ارى لبنان ارفعهم جبينـا
أشد الحب مـا يدعى هياما
فما يدعى اذا بلغ الجنونـا ؟؟

وتتناثـر أخباره
وتتناثر اوراقه
وتتناثر « زهوره »
هنا ... وهناك ...
في وادي النيل
في سلطنة الظلمة
في رأس بيروت
في وادي الدير
في ساحات بعقلين
في مجاهل الشوف
في اقاصي المتن
في درجعاتم من ادراج الجبل الجاحد
وقد تكون ... وقد لا تكون ...

لهفي علـى العمر والاماني
ولـت كمـا اقبلت ملاحـا
خبـأت باليـل فيـك همـي
يـا ليـل مـن خبـر الصباحا
كفـى المنـى انهـا خيـال
اسعدنـا سـاعـة وراحـا

قال لي صاحبي وقـد لمح الفجر
مطلا يرنو لنـا مـن بعيـد
وارنـي فـي النهار عن اعين الناس
فانـي خـدن الليالـي السـود

* القيت في حفلة ذكرى الشاعر امين تقي الدين التي اقيمت في قاعة اليونسكو ببيروت في ١٠ - ١٢ - ١٩٦٧

كان يود في حرمانه ان يتوارى عن
مكامن الضوء
وكنا نحن في تلفتنا شيئا من اصداء الضوضاء
على عقد النهار وقساوة الاعين
نخلع بغرورنا ، أيام ذاك ، ثياب الليل
على جسد الصبح ومشاجب الامل
نطوي بها على عرى الجوانب
نلقي بها في الفور الشفاف البعيد
اعباء اعباء على عواتق الآخرين
جراحا جراحا على آهاتهم الثقيلة
وهمومهم الصاخبة
قسما بضاحكة المنى وعهودها
لم الف الا ما ادعوه خيالا
اني لفي زمن كان اديبه
حسب البيان مجانة ودلالا
ويروى صاحبنا
انه استمع اليه اول ما استمع
في حزيران
في التاسع والعشرين من حزيران
عام الف وتسعماية وتسع وعشرين
ذكريات تشد بأعناق ذكريات
ومصادفة تزدحم بمصادفة
وتدافع المتكلمون في توديع شاعر النيل
وتحدث التويني «الكبير» عن حافظ
وتكلم مطران نثرا كالسيل الجارف
والقى صلاح اللبابيدي شعرا
والقى نجيب ليان شعرا
ثم
امين تقي الدين
يا لروعة التاسع والعشرين من حزيران
يا لعمق ذلك المساء
كيف تحول نادي (الرستوران الفرنسي)
في هذه المدينة الى مأدبة من مآدب العطاء
الى لقاء من لقاءات الود
الى تحية وفية من تحيات الوداع
الى شمل عربي اصيل أصفى من الرصانة
..... وامتن من القلوب
بروحي الشعر روحا حل في كلم

ورق فاتخذ الارواح آذانا
وشاعر « الكآبة » يباهج شاعر « البؤساء »

يا شاعر « البؤساء » اني مائل
بالباليين فصاحتي وثيابي
خرق كان خيوطها منسولة
لسن تذيع على المكارم ما بي
لما وصفت البؤس بت يشوقني
طربا لذاك الوصف كل عذاب

وتفتحت اواصر التعارف
وتقدم هذا الفتى الطامح يشد بقلبه يده
يردد بكبرياء، باصالة، ابيات القصيدة
وأعجب الفتى اعجابه ،
بصفاء الكلمة
... بنقاوة الديباجة
برقة الجرس
بسهولة المنال
بالسجية المرسلة
بهذا الطابع اللبناني المتفتح المنطلق
حيث لا تعنت
ولا تكلف
ولا تجهم
بهاتيك الكآبة الصوفية التي لا تشبه
الالم الصارخ بقدر ما تشبه الشوق
ولا تغرق في الآهات والانين بقدر ما تغرق
في الارنان
والتأمل
وعذوبة الايقاع
وشجى الحنين

ولعل اعمق ما اخذ به ..
هو هذه الصور السهلة القوية المتخلقة
بسجية الجبل
... بطبيعته
ووداعته
ويحيي الشاعر اللبناني الشاعر المصري
اما حنى لبنان شامخ ارزه
للنيل اجلالا فما من عاب
الدوح فينان ولكن روحه
ماء ترقرق في ظلال الغاب

ويا لقوة هذا الماء
ـ هذا الماء الصخري
ـ هذا المترقرق على العذوبة ،
والخصب ،
والوقار ، في الافياء والظلال
والارض الموات ....
ـ هذا المتفجر من ينابيع التسامي
وقباب التسامح ، وأغوار القدم ،
ومصادر الوعي ومصادر القوة .
يمد السهل وجهه فيشرب
تميل الهضبة براسها فترتوي
تشتاق الصحراء فينبت في قلبها
في رملها النخيل
ثم تتقلب بهم وجوه الايام
وينبسط بساط الالفة
ويلتئم شمل الود
ويسلم سلامته نسب الادب
وتطمئن شمالية طريئة طامحة
الى ظل شوفية مختمرة مكتملة
ذات صدارة
وذات بيان
وذات نضال
ولبنانية ...
هي الجوهرة الحريزة في عقد اللؤلؤ

ويعطف الشيخ امين عطف المشجع على
نشوء صديقه
وتنشئة صديقه
ولا غرو
فقد أوى صديقه الى بيته ليلة
حزيران ليجد
على مد اليد من زاوية بيته بيته
.... جدارا الى حافة الجدار
.... نافذة الى مفتح النافذة
.... بابا شوفيا في جيرة الباب الشمالي
ويسأله وليه ...
يسأله عمه عن ليله المتأخر
فيحكي حكايته
وكأن الاقدار تعانق مخاصر الاقدار
... كان عمه ...
كان يوسف زخريا وامين تقي الدين
خدني صبا ، ورفيقي كهولة ،
وجارى رضا، وجليسي أنس وادب.
كانا صفوين في الفقر ،

في البشاشة ،
في الالم ،
في التعهد ،
في التفقد ،
في التفاوت ،
في يقظة الضمير .

« نحن خدنا صبا طوته الليالي
واكتهلنا على صرير اليراع »
« كنت تشكو وعودهم لك لا توفى
واشكو سماعهم كل ساعي »
« علة الحكم في بلادي ان الحق
امسي وساطة ومساعي »

« يوسف زخريا »

ويجلس صاحبنا فيحدود هذهالمأدبة
نديما ثالثا من الندماء
يلتحق الفكرة ويواكب الخاطرة
... يبحر ابحارهم ويرسو ...
يسرى اسراءهم في القافية
في الكلمة
في حرف عربي ينزل نزوله هنا
... وحرف ينزاح انزياحه هناك
ونوادر ولطائف
وقصص مترامية بين وادي الدير
... ووادي النيل
... وجبل الشقعة
... وقلعة المسيلحة
... وارز شمالي اقدم قدما ، في
ضمير الزمن ،
من ارز الباروك والمعاصر
واعمدة الخشب في أخشاب سليمان

وكان امين تقي الدين اذا ما شط
بنا المجلس
... تمهل في الصمت
وقوة الاكتفاء
وروعة الانكفاء
ثم ادار المجلس الى حيث يقف
في دقة الضبط
وسرعة الانتقاء
وقديم جديد
وجديد لا يعرف القلق ، ولا الضيق،
ولا الحقد ، ولا حزازات النفوس
المتغلغلة في اقليميات الجبل .
كان بين بيتنا وبيته
ممر رجل
... ونخلة ...
نخلة عالية باسقة تخاصر الجو ،
... تتهادى على مدى الشرفات
والسطوح
تثبت برأسها في الريح
في الريح الشرقية
... والبحرية
تنتفض اغصانها في الهبوب انتفاضا
دون ان تختل لها جذع
او تنحل لها عقدة
وكم حدث امين تقي الدين عن هذه
النخلة
ــ عن هذه الجذع الثابتة المتحدية .
ــ عن العقد الملساء المتماسكةالمتمردة.
ــ عن الرأس الشامخ العاصف .
ــ عن هذا الدوري اللبناني العنيد
المستخف
الذي يبني عشه في رأس النخلة
مع الريح والشمس والمدينة
ومحطات الهبوب
كم حدثنا ...
عن خيال ينطلق من شرفة البيت ،
الى غصن النخيل
الى فتحات التنفس
.. الى مضارب الجبل ..
الى القرية الشوفية المتعالية
الى تلك المنبسطة على السنديان
والشوح والزيتون ،
والهضبات البحرية
والمطل الدائم .
وليل لا تتعب فيه رئته
وفجر لا تتلفع فيه عيناه
كان امين تقي الدين :
ــ قويا في ايمانه كنفس الامل
طبيعيا في وضوحه كبناء الحجر
نقيا في مودته كتراب القمة
انوفا في دنياه كمراقي الدوح
عميقا في وفائه كضمير الفصول
منعطف يعتصم بمنعطف
حكاية سائرة من حكايات الارض
اللبنانية

لو صانني قومي وصانوا مجدهم
حب العلى مشت العلى بركابي

يكتب فلا يبرد في يده القلم
يتكلم فلا يعيا في سياقه الكلام
... ينقح يشذب ...
... يدقق يبدل ..
يتأمل ، ويحلل ويتبصر
ويصب نثره ...
ويصب شعره ...
صعوبة سهلة
وسهولة صعبة

حارت الدنيا كما حرنا بها
عمرك الله اتاريخا وفقرا
ان ملكت الناس فاملك قلبهم
عبثا تملك حب الناس قسرا

ثم ...
ثم اني لي
انى لي ولكم ان نقراه
وتراثه ورق مشتت ومتناثر علىورق
لا ديوان شعر تقرأ فيه شعره
لا كتاب نثر تطالع فيه نثره
لا مخطوطة ترتشف منها سجيته
لا صورة ، لا رسالة ، تستقي منها
شكايته
حتى ولا البيت الذي عاش فيه
ولا الغرفة ،
ولا السرير الذي عاشت فيه كآبته
ولا يراعه
ولا دواته
ولا شيء من اشيائه
من تلك الاشياء المجبولة بدمه
الرائقة بلياليه
الحاملة من ايامه مفاتيح
الذكرى ومعالم التذكر
أجف حبره ، يوم جف قبره
عفوك اللهم
اللهم عفوك
متى ينهج هذا الوطن في تكريم
ادبائه
وشعرائه ، الى مظاهر الحضارة ؟
ومواقع الانصاف
متى يصبح للشاعر
لكل شاعر
مزار يقصد
مكتبة تحرس
بيت يصان
درب تؤدي

الطائر المهاجر

في نهاية عام ١٩٦٧ صرح للمهندس نبيل نجل الشاعر محمد عبد الغني حسن بالهجرة الى البرازيل فزوده والده بهذه الابيات لصديقيه الاستاذ موسى كريم صاحب مجلة « الشرق » بسان باولو والشاعر الياس فرحات :

ألقيت بين يديكم فلـذة الكبـد ... وقلت : سر في أمان الله يا ولدي
قضى الطموح عليه ان يفر بـه ... عن ربعه الخصب او عن عيشه الرغد
الحب في عشه ، والماء في فمه ... لكنه هائم كالطائر الفرد
ظمآن والماء يجري في جداولنا ... والنيل يروى على الشطين كل صدي
دعاه للمجد داع واستبد بـه ... من البواعث ما لم يجر في خلدي
آماله ضاق عنها الشرق فاغتربت ... ترى البعيد عليها غير مبتعد
الكون خطوة رجل عند همته ... والارض دانية الابعاد والامد
تركته لطموح النفس ينقله ... من مهده لفراش غير ممتهد
ولم اشأ ـ مرغما ـ تثبيط همته ... ولا أردت له اشياء لم يرد
أحببت من أجله ما فيه راحته ... وان يكن فوق طوق الصبر والجلد
برغم انفي اني لا تريد يدي ... تقييد منطلق أو صد مجتهد
ودعته بيد مني محطمة ... مرعوشة وفؤاد في مرتعد

استودع الله فيما بينكم أملا ... يومي لغربته مستشرف لغدي
أعد من أجله الايام سائرة ... فلا أوفق في الحسبان والعدد
اليوم يمضي بنا كالدهر متئدا ... لكن شوقي اليه غير متئد
أغفي على نأيه عيني وافتحها ... فلا أرى مثله في الناس من أحد
استغفر الله ! لم اعدده مغتربا ... ما بينكم فهو بين الاهل والولد
لولا وجودكمو في دار هجرته ... ما كنت اسلمتكم يوم النوى كبدي

القاهرة

محمد عبد الغني حسن

مجتمع يبحث
ومجتمع يحلل
ومشاعل ترفع مشاعل
متى ننطلق من دنيا الحنجرة الى دنيا التأمل
من الارتجال الى التبصر ؟!
الى صيانة نظامية امينة شعبية لتراثنا الغائب
متى نبني لوطننا المحاريب المقدسة؟
حيث يتكلم الحجر
ويروى الديوان

وتقص اليراعة
وتحكي الدواة
ويخبر الخط اخباره الخفية
وتوحي التوافه بما توحي الغاليات
متى يطلق الصديقان العزيزان
وسيم وحافظ تقي الدين
ديوان ابيهما
« وزهور » ابيهما
من معتقل الديوان
وقمقم الطيب
واديك والسهل كسر المنى
يدرك بالروح ولا يمتلك

سبحان من خبا فيك الصفا
وسل من قلب الصفا جدولك
ايها الناس
ايها اللبنانيون
كان في طربوش امين تقي الدين
من النخوة اللبنانية
من الوفاء اللبناني
من الشعر اللبناني
قدر ما في غصون الصنوبر من
حكايات الاخضرار

الياس خليل زخريا

لا يشغل بالي شيء الان سوى امي المريضة . لا يشغلني سواهـا . تركت عملي في العاشرة صباحا لالحق قطار الظهيرة ، واذهب اليها . وصلني اليوم خطاب من اخي .. خطاب مقتضب .. حياني فيه بطريقة عفوية واوجز في سلاماته التي كان يسهب فيها اسهابا مضجرا. الخطاب أشبه بمذكرة احتجاج على موقفي السلبي من اهلي بالزقازيق ، وعتاب من اخيعلى اهمالي شؤونهم وخشيته من ضجيج القاهرة التي يعزواليها سببهذا التغيير الطارىء في حياتي . وفي نهاية خطابه ذكر لي ان امي مريضة ، لكنه لم يطلب مني ان احضر . تضايقت من اسلوب الخطاب ، لكني عذرت اخي واقمت علاقة بين عتابه وجمودي ، فعرفت انه على حق . ويجدر بي ان اقيم توازنا في حياتي ، بحيث أؤدي واجباتي كلها دون تقصير .

طالما تقت الى المال ، وطالما بررت تصرفاتي على اساس انها سليمة . لكن خطاب اخي جعلني اقلبالموازين التي اعتقدت فيها . وفي الحقيقة ، ليس خطاب اخي هو السبب الرئيسي ، وانما ضيقي وتبرمي من كل ما حولي .. علاوة على السأم والملل اللذين يدبان في كيانيويصيبان راسي بالدوار .. احسست في الاونة الاخيرة بالضيق من تلك الطريقة التي اجابه بها الاحداث .. والتي اوزن بها تصرفاتي بميزان دقيق . دائما انتهي بقرار يرضى عنه منطقي .. دائما اجدني اطرح تساؤلا واحداً : هل ما افعله او اقرره يتماشى مع الصواب ؟ . لكني احاول دائما ان اطمئن نفسي بان كل شيء يسير في مداره الطبيعي .

قفزت في عربة مزدحمة ... الزحام خانق ، والناس تلفو بكلمات احيانا تكون طيبة واحيانا تكون رغاء .. او لا بد من ان يتكلم الناس ؟!.. بجانبي فتاة نحيفة القوام ، ذات هيئة رثة ، ترتدي ثوبا اسود كالحا ..وفوقه «بلوفر» اسود..مترب.. شعرها منهوش على الجبين..مسكينة هذه الفتاة ، يخيل الي ان اطرافها تتثلج ، فالبرد قارس هذه الايام ، ويبدو ان ما ترتديه من ملابس رثة كالحة لا يفي بحاجة الجسم الى الدفء والغطاء .

تذكرت حكاية زواجي من فتاة في مثل سنها وقوامها ، سمراء مثلها .. انها عايدة ابنة صاحبة المنزل الذي اقطن فيه .. وحين أعلنت رغبتي لامها ، قالت بغير اكتراث :

ـ يسعدنا ان تتزوج بنتنا ..



بقلم حسني سيد لبيب

يحصل لنا الشرف .

اغدقت علي بهذه الكلمات الحلوة ، ثم سكتت ، ومن يومها لازمت الصمت ولم تشر الى الموضوع من قريب او بعيد .. وظللت اجتر كلماتها الحلوة طيلة الشهرين الماضيين ، وانتظرت ما يعقبها من عمل ايجابي . فكرت كثيرا في موقفي السلبي ، وهل من الواجب ان احادثها في الزواج مرة ثانية ؟. لكني وجدت صوت العقل يصخب فياعماقي بان الزم الصمت ، فان لي كبرياء لا يجدر بها ان تسفح ... لقد بحت برغبتي وعليهم ان يبوحوا برغبتهم ، وظللت ملتزما الصمت ، فهذا هو الشيء المنطقي



المقبول .. لكني في قرارة نفسي ضجرت وسئمت ، واحسست بالحياة قاسية غير معطاء ، وان اعطت فلتأخذمنا اكثر مما أعطتنا . ثم جاءني خطاب اخي ، المقتضب ، فأحسست بصدى كلماته ترن في اعماق نفسي .

العربة مزدحمة ، وكتل الناس المتراصة بجانبي تتقاذفني يمنة ويسرة ، فاضطر الى لمس الفتاة الحزينة الكاسفة البال ... ثم اعتذرت لها حين رمتني بنظرة قاسية .

لكم ضايقني الزحام والصخب والكلام المجوج .. خلا مقعدان فدفعت الفتاة كي تجلس ، ثم جلست بجوارها .. فهذه فرصة للتخلص من الزحام الخانق .

استعرضت حياتي في صور متلاحقة متتابعة ، فوجدت انني اعيش على هامش الحياة .. ودائما اخشى ان اغوص في أعماقها ،بدافع من المنطق ... شردت طويلا ،افقت .. فلمحت الفتاة ترمقني وترقب ما انا فيه من شرود . حقا ، لايجدر بك ان تفصل نفسك عن الحياة وتشرد . لكن .. ماذا تفعل ؟! اتتحدث مع الفتاة ؟ اذن .. ماذا تقول لها ! انت لا تعرفها ، وهي لا تعرفك .. انتما رفيقا طريق ، وسرعان ما تفترقان . لن يستمر الحديث بينكما سوى دقائق ... اشبه بتلك الاحاديث المجوجة التي يصخب بها الركاب .. ليس من اللائق ان تتكلم لمجرد الكلام . الزم الصمت ، وفكر في امك المريضة . لا بد ان تفكر في كيفية ارضائها بعد هذه الغيبة الطويلة . كم شهرا انقضى عليك في القاهرة ؟ خمسة.. لا ، انها ستة اشهر تماما ، على غير عادتك .. ويبدو ان تفكيرك في الزواج هو الذي الهاك عن الاهتمام بأمك والسؤال عنها .

افقت من شرودي على صوت الفتاة :

– كم الساعة ؟
– **العاشرة والنصف .**
وعدت الى شرودي . رمقتني الفتاة مرة ثانية بنظرتها القاسية ، لكنها لم تقل شيئا . ما بالي اشغل نفسي بالفتاة ؟ . صحيح انها فقيرة، ويبدو ان تأثري بحالها هو الذي شغلني بها ، او كونها في مثل قوام عايدة .. اوه .. توافه وفوارغ يصخب بها عقلي . يلزمني القليل من الراحة والهدوء . خبطات متتالية على زجاج الحاجز الذي يفصلني عن ركاب الدرجة الثانية .. لا بد انه المحصل .. ابرزت له الاشتراك ، ثم عدت مرة اخرى الى ما كنت عليه ، لكني افقت سريعا على صوت المحصل ينهر الفتاة قائلا :
– التذكرة بقرشين .
– ليس معي سوى هذا القرش .
– لماذا تجلسين في الدرجة الاولى ؟ .. الا تعرفين انها بقرشين ! آه من مكرك وخبثك !
تململت الفتاة وهمت بالنهوض ، لكني دفعت لها القرش الباقي ، وعاتبت المحصل بنظرة قاسية صامتة .
– **متشكرة جدا ..**
– عمل بسيط لا يستحق الشكر .
نظرت الى الساعة ، فقالت الفتاة:
– أأنت مستعجل ؟ لا بد انك على موعد ..
– اجل ..
ولم ازد .
نظرت من النافذة فألفيت محطة مصر تقترب . نهضت عن الكرسي ، والفتاة تنهض في اثري . لا بد أنها ستنزل في نفس المحطة . مسكينة هذه الفتاة .. قرشها الاخير دفعته للمحصل ، لا بد ان فقرها مدقع .
لم يزل امامي ساعة ونصف على موعد قيام القطار ، من الممكن ان اتناول غدائي واشرب الشاي . مشيت قليلا ، ثم وقفت امام مطعم .. وحين هممت بدخوله ، الفيت الفتاة المسكينة تومىء الي بأن اقف . ابتلعت ريقها ، وقالت بصوت واهن :
– **انا جائعة .**
فرحت لصراحتها . وانها لفرصة طيبة لفعل الخير . سأحكي لامي قصة لقائي بالفتاة ، ستغمرني بدعواتها الطيبة ، وتحسدني على تلك الخطوة الجديدة .. فهي دائما تتهمني بالبخل وعدم مساعدة المحتاجين . لا شك انها ستفرح .
نظرت الى الفتاة لا ادري ماذا اقول لها على وجه التحديد ، أأدعوها للدخول معي ؟ .. ام اسألها عن طعامها المفضل ؟ صمت فترة غير قصيرة ، ويبدو انها فهمت من صمتي اني وافقت ، فقد دخلت المطعم بخطوات جريئة فانقدت في اثرها دون ان اتكلم .
تناولنا الغداء ، وظللت اثرثر بكلمات كثيرة . احسست بحاجتي الى الكلام ، والفتاة تنصت وتنصت، ولا يبدو عليها الملل .. وانما ارتياح تام يبدو على سيماء وجهها، واصغاء تام لما اقول . نظرات عمال المطعم تتجه ناحيتي ، بعض الزبائن يتغامزون حولي .. لا ادري لماذا ؟ يبدو ان الفتاة بثيابها الرثة قد اثارت اهتمام الناس .. يبدو انه منظر شاذ ، منظري بذلك الهندام الانيق مع تلك الفتاة ذات الملابس الرثة الكالحة . وبدات اخاف . صوت المنطق يصخب في اعماقي ، محتجا على سلوكي . لكني صممت على موقفي ، لن اسمح للندم ان يتسرب الى كياني . احسست بحاجتي الى المزيد من الكلام ، اي كلام .. وليكن كلاما ممجوجا مثلما يتكلم الناس في لقاءاتهم العابرة . حدثتها عن حكاية زواجي الذي لم يتم ، فضحكت .. ضحكت من اعماقها .. ونصحتني ان اطلب يدها مرة ثانية . وحدثتها عن امي المريضة ، وعن زيارتي لها بعد غيبة دامت ستة اشهر . كما حدثتها عن سأمي وضجري ، وعن منطقي الاجوف . قلت كلاما كثيرا . الاطباق فرغت ، فطلبت المزيد من الطعام ، والنظرات لما تزل تحوم ناحيتي ، والغمز واللمز اصبح فاضحا مكشوفا ... ما سر ذلك يا ربي ؟ . اليس هذا عملا طيبا ؟ لماذا اذن يقيد الناس تصرفاتي ؟ هل في الامر جريمة ؟ تساؤلات عديدة فرضت نفسها : لكني اهرب منها الى الثرثرة مع الفتاة . دفعني الضيق الى ان استولد من الكلمات كلمات اخرى ، وظللت على هذه الحال الى ان انتهينا من الطعام تماما .. خرجت في خطوات متعثرة مضطربة ، والفتاة تتبعني . لمحت صديقي احمد فأعرضت عنه ، ودعوت الله الا يراني . مشيت مع الفتاة وانا ما زلت اثرثر . وبدأت أعاني ضيقا شديدا عجزت عن التغلب عليه ، لاسيما وان نفس النظرات التي لاحقتني في المطعم ما تزال تلاحقني في الشارع .. الفتاة ترمقني في شبه رثاء لحالي .. قالت :
– **اتذهب الى السينما ؟!**
ابتسمت ، لا بد انها تحاول ان تعالج ضيقي ، قلت لها :
– انسيت ما قلته لك من اني سأسافر بعد قليل لرؤية امي المريضة ؟ . لا بد انك نسيت .. عندك حق .. فقد تكلمت كثيرا .. ولا بد انك مللت ..
ضحكت الفتاة وقالت :
– كنت اظن ان لك رغبة .
وتصنعت الدلال ..
– عندك حق ، فأنا متضايق بعض الشيء . مشاكلي الخاصة تزحم تفكيري .. أوه ! دعك من هذا .. اظن ان البرد شديد ، سأشتري لك اثنين كيلو برتقال .. كي تتغلبي على البرد ، لا بد ان تأكلي وتأكلي ..
عرجت على فاكهي ، واشتريت لها البرتقال .. حتى الفاكهي ،

في حمى القبر

اذا مت فارموا جانب الحقل جيفتي
قرى للضواري والطيور الكواسر !
وللطير ما يبقى من الجسم مأكلا
وللدود ما تحوي حشاشة شاعر
فلست أرجي في حمى القبر راحة
وما أنا مفراح لزورة زائر
دعوني .. فقد كفنت في ميعة الصبا
غرامي ، وآمالي ، وغر خواطري !

حلب — علي الناصر

اخذ يرمقني بنظرات قاسية ، ويبتسم دون ان افهم معنى ابتسامته .

— خذ يا بيه .. وهنيئا لك البرتقال .

اعطيتها كيس البرتقال ، فتمنعت قليلا لكنها اضطرت الى اخذه في النهاية ارضاء لي ، وقالت :

— الا ترغب ؟ ..

وابتسمت ابتسامة باهتة . قلت لها :

— كنت اتمنى ان امكث معك قليلا ، لكن الوقت ليس بيدي .عفوا يا فتاة ... اوه لا اعرف حتى اسمك ! .. لا يهم .. تصحبك السلامة ، وادعي لامي بالشفاء ..

مددت يدي مصافحا ، احسست بيدها تضغط على يدي بقوة وتتشبث بها .. قالت :

— هل ترغب في شيء أؤديه لك ؟!

— لا .. شكرا .

— هل تأخذ عنوان عملي ؟

— هل تعملين ؟ .. لا داعي للعنوان .. شكرا ، الى اللقاء يا ..

وظل اسمها مجهولا ، ولم اشأ ان اسألها عنه . مشيت في طريقي قاصدا مقهى المحطة .. كعادتي في كل مرة اودع فيها القاهرة .

امامي نصف ساعة استطيع خلالها أن اشرب الشاي . اشتريت مجلة من بائع متجول ، واخذت اعبث بصفحاتها بغير اكتراث . شعور بالارتياح يغمر كياني لاطعامي فتاة فقيرة . شيء جديد تتمنى امي دائما ان افعله . سأكسب دعواتها الطيبة . فجأة الفيت صديقي احمد يقف قبالتي . صافحته ، ثم دعوته للجلوس معي . قال مبتسما وهو يهم بالجلوس :

— هنيئا لك الصيد الثمين .

ولكن ! .. الا بد من أن تعلن عن نفسك وتفاخر بصيدك امام الناس ؟

ارتج علي قوله ، قلت :

— صيد ! .. لست افهم .. ماذا تعني ؟ .

— الا تفهم ؟ .. او لا بد من التخابث ؟ .. الم ترني في المطعم ؟

— كلا .. لم آخذ بالي .

— انا رايتك ، ولم اشأ ان احرجك ..

— تحرجني .. ابدا كل ما في الامر ، فتاة فقيرة اطعمتها لله تعالى ..

قال وهو يموسق كلماته :

— لله تعالى .. اتظنني ساذجا ، كل الناس فهمت .. تأكل في مطعم عام مع بهية فهمي ، ثم تدعي ادعاءك الاجوف !

— اسمها بهية فهمي ؟

— الم تك تعرف اسمها ؟ يا لك من ساذج ! او ربما تتلاءم .

محاورتي معه تدور في حلقة مفرغة ، فهو يتكلم بايماءات لا افهمها .. كما ان كلماتي لا يستسيغها ، فحاولت أن اشرح له حكايتي مع تلك الفتاة التي تدعى بهية فهمي . كان ينصت لحديثي وهو غير مرتاح لتصرفاتي .. وفي نهاية كلامي قال :

— على اية حال ، فان طيبتك دفعتك الى اطعام ساقطة !

— ساقطة ! .. لقد بدت لي فتاة مسكينة تعاني من الجوع والبرد القارس .

— خدعتك .. كانت تنظر اليك كصيد ثمين .

كانت كلماته ثقيلة .. لم اتحمل كلماته ، وثرت عليه ..

— صيد ثمين ، اوه يا احمد ... دعني من تعبيراتك القاسية .. انا اليوم اطعمت فتاة مسكينة تعاني من الجوع والبرد القارس . عملت عملا طيبا . لم التق ببهية الساقطة .. لم اسألها عن اسمها . عملت عملا طيبا ، عملا طيبا .. عن اذنك ، حان موعد القطار .. لم يبق سوى عشر دقائق . ان امي مريضة ، وسأقول لها اني اطعمت فتاة مسكينة .. فتاة لا اعرف اسمها ، ستغمرني بدعواتها الطيبة . وبالمناسبة لقد نصحتني الفتاة بأن أعاود طلبي للزواج من عايدة .. بنت صاحبة البيت ... وسأعمل بالنصيحة .. عن اذنك .. لا وقت عندي ، ما هي الا دقائق ويتحرك القطار .

مشيت ركضا حتى اضمن وصولي الى داخل المحطة .. ومن لحظة لاخرى ، انظر الى ساعتي لاطمئن على الدقائق القليلة ، لا وقت عندي لقطع تذكرة .. سأدفع ثمنها في القطار . المهم كسب الوقت ... ساعتي الان الثانية عشرة الا احدى عشرة دقيقة .. لا وقت عندي للتفكير في شيء آخر .. المهم اللحاق بالقطار .. لم تبق سوى دقيقة .. اتجهت الى الرصيف فالفيت القطار قد رحل ! ..

.. جمد الدم في عروقي ، ودق قلبي بعنف . نظرت الى ساعة المحطة فادركت ان ساعتي غير مضبوطة ، ساعتي كانت تؤخر خمس دقائق .. خمس دقائق فقط كانت كفيلة بعرقلة سفري الى الزقازيق ، لارى امي المريضة .

القاهرة — حسني سيد لبيب

ابطـال خـارج المسـرح

الى أخي الشاعر صلاح نيازي

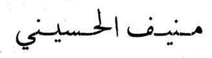
عقيمة احلامك الصفراء
يـا حاصد الصحراء
يا مبدع الاسفار في مسامعي
أغنيـة بكـاء ،
كأنمـا أبحرت في
... لا شيء في البحار
وجئت بالمحار ...
تلظمه قلائـدا
تنظمه قصائدا
فتشت عنـي
في وجوه الناس والاشياء
نسيتهن كلهن ؟
يا لدعوى شاعر لا يذكر الاسماء !
وهكذا صرت انا القصيدة المنتظره
تكتبهـا ،
لانني الجسر الذي لن تعبره
عقيمة احلامك المحتضره ! ...
« لو كنت في العشرين ،
لكنت قـد صدقت
هذا الحزن يا حزين
أطفلـة كنت ؟
كأني قد نسيت مـا عبر
هل كنت يوما
أعشـق القمـر ؟
هل نام في الشجر ؟
أصيده في الماء ، او أله ،
ألم مـا انكسر ...
أكنـت يومـا
هـذه الصور ؟
أكنت ؟ ما أقساك يا تشرين !
تفضن السنين
في نفسي الاسيره
تطفىء حلم الطفلة الكبيره !...

وأنت يا متيمي الصغير
تلـف او تـدور ...
تفلسف الاشياء
تعوم كـم تعوم
فوق شبر مـاء ؟
فراشة طعينه
تلهث كالنهار في المدينه
يا راسما بكفك السراب
خـذ ظماي ،
خـذ عطش التراب
فجره ، فجر ـ ان تشأ ـ
لـو انـه العباب
يغمرني ، يكسر كل باب
يا مسرحي الوجه واليدين والعباره
فلترفع الستارة
عن وجهك الباكي وما استعاره ...
عينـاك تفضحان
مـا خبـأت مغاره
وصوتك الـ ......
وشيت هـذا الصوت بالحنان
عيناك تفضحان ،
تفضحـان ...
كـأن فيهمـا
يزدحم السعار
حمرة جلنـار
وحشـا اذا يثـار
دع عنك هـذا الحب
والسهـاد والحنين
ولتغـرق السفين ...
أخاف ان أصدق الحكايه
أصدق الصدق بها ،
فتنتهي الفصول والروايه .

لندن

سامي حداد

من اعلام الفكر والادب في فلسطين



بقلم البدوي الملثم

* * *

رأى نور الحياة في بيت المقدس عام ١٨٩٩ وحمل الى يافا رضيعا اذ عين والده المرحوم محمد عارف بن يوسف الراغب الحسيني مديرا لدائرة التسجيل وامضى فيها اربع سنوات ثم انتقل الى نابلس بانتقال والده وصرف فيها نحو ست سنوات وانهى تعليمه الابتدائي وقسما من الاعدادي فيها ، وفتح عينيه في نابلس على والد أديب وشاعر كانت داره نديا لعلماء المدينة وافاضلها ، فمال « منيف » الى الادب وهام به وغرق في امهات مصادره .

وبعد ان احيل والده على التقاعد في العهد العثماني عاد بالاسرة الى بيت المقدس فاكمل منيف دراسته الثانوية في المدرسة المامونية ثم المكتب السلطاني وظل على صلة بدواوين الشعر وكتب الادب . وظلت دار أبيه في القدس كما كانت في نابلس ندوة لاهل العلم والادب امثال : محمد كامل الحسيني مفتي القدس الاسبق والشيخ علي الريماوي وعبد السلام باشا الحسيني وعلي جار الله والمعلم نخلة زريق وغيرهم ، فكان « منيف » يسمع منهم ويتادب عليهم وكان « زريق » ذلك اللغوي الفحل يخصه برعايته ويحضه على استظهار بعض القصائد والمقطوعات الشعرية .

وفي الحرب العالمية الاولى عين « منيف » وكيلا لمدير القسم الابتدائي في المكتب السلطاني ببيت المقدس ، ثم دخل المدرسة الزراعية في الاطرون (من ضواحي القدس) ولم يمكث فيها الا قليلا اذ اقتحمت القوات البريطانية ، بقيادة الجنرال اللنبي ، جبهة غزة وبئر السبع ، بعد فشل الحملات البريطانية السابقة ، فاعفي « منيف » من الدراسة الزراعية مع زملائه وعاد الى القدس ، ولم تلبث القوات البريطانية ان احتلت القدس في ١٧ كانون لاول ١٩١٧ ، وكان اكثر الناس يظنون خيرا في الانكليز الا كبار السن الذين صقلتهم التجارب ولهم اطلاع على مجرى السياسة العالمية ، فانهم لم يخدعوا بالسياسة البريطانية في فلسطين بعد ان سمع الشعب العربي بوعد بلفور ورأى عرب فلسطين زعماء الصهيونية والمهاجرين يهرعون بالآلاف الى فلسطين ، فاعترى العرب القلق وساد الخوف من جراء هذه الظاهرة الخطرة وتنادى اهل الرأي في فلسطين لدرس الاوضاع وتدبر الامور .

ولما احتل الانكليز فلسطين كان عرب فلسطين ينؤون تحت كوارث وويلات الحرب العالمية الاولى ، ولم يكن لهم تنظيم سياسي او تشكيلات شعبية اذ كانت فلسطين جزءا من السلطنة العثمانية . ورغم كل هذا النقص شعر عرب فلسطين بالحاجة الى التنظيم ، وسرعان ما شكلت الاندية والهيئات الوطنية والجمعية الاسلامية المسيحية التي تزعمت الحركة الوطنية .

وفي ٥ آذار ١٩١٩ عقد في القدس المؤتمر العربي الفلسطيني الاول الذي قرر التمسك بالوحدة السورية والاستقلال التام ومقاومة تصريح « وعد بلفور » وانتخب لجنة تنفيذية للاشراف على الحركة الوطنية وتوجيهها فكان « منيف » في طليعة المنضمين الى هذه اللجنة والى مؤسسي « النادي العربي » الذي أسس في القدس عام ١٩١٩ وسعى مع اخوانه الى فتح مدرسة « روضة المعارف » التي اغلقت ابوابها خلال سني الحرب الكبرى فكان لهذا المعهد الوطني اثر ملموس في دعم الحركة الوطنية وتوجيهها توجيها قويما .

وفي اوائل الاحتلال البريطاني علم « منيف » في « المدرسة الرشيدية » و « المدرسة المامونية » بالقدس واخيرا آثر اكمال دراسته الزراعية فالتحق بمدرسة الغوطة الزراعية بدمشق التي انشاتها الحكومة العربية السورية في العهد الفيصلي ، ثم انتسب لمدرسة سلمية الزراعية بمحافظة حماه فامضى فيها سنة دراسية وحصل على شهادتها ثم عاد الى فلسطين وعين مديرا لمدرسة طولكرم الزراعية وقضى فيها ١٤ شهرا . ومشاركة منه في الحركة الوطنية آثر العمل الحر على الوظيفة فانصرف للعمل في الحقل الوطني والتدريس في كلية روضة المعارف .

ورأى « منيف » ان الوضع السياسي في البلاد يتطلب جريدة حرة يصور فيها امانيه القومية وتحمل الى الشعب العربي آراءه السياسية ولتكون منبرا عاما لتنبيه الافكار ومناجزة الاستعمار وللكشف عن الخبائث التي حملها في ركابه وبالتالي لمحاربة سياسة تهويد فلسطين فنال امتياز بجريدة يومية باسم « الجامعة العربية » وصدر العدد الاول منها في ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٧ فكانت لسان حال الحركة الوطنية في فلسطين واستمرت في الصدور مدة تسع سنوات لقي « منيف » خلالها من ظلم الانكليز وجورهم والتضييق على حريته وعلى صحيفته الجريئة الوانا من العذاب .

ولما نشبت الثورة في فلسطين عام ١٩٣٦ اعتقلته السلطات البريطانية مع العشرات من احرار فلسطين واودعتهم معتقل عوجا الحفير ثم معتقل صرفند الذي اقامه البريطانيون على اثر استفحال تلك الثورة واعلان الاضراب الشامل العام الذي استمر ١٨٠ يوما وانتهى مع توقف الثورة بطلب من ملوك العرب وامرائهم .

الى القاهرة : ولما استؤنفت الثورة عام ١٩٣٧ قصد « منيف » القاهرة في مهمة وطنية فبقي فيها نحو سنة يعمل مع بعض زملائه واخوانه في الدعاية للقضية الفلسطينية وفي استثارة العالمين العربي والاسلامي ، يشاركهم في هذا الجهد الوطني كثيرون من فضلاء مصر وكبارها . ولقي « منيف » والعاملون معه رعاية من ساسة مصر حكاما ومعارضين عهد ذاك ومن كتابها ونوابها ورجال صحافتها . واعدت « جمعية الشبان المسلمين » في القاهرة مكتبا خاصا في القضية الفلسطينية وفي النشرات التي كانت تطبع وتوزع في المهجر وفي الاقطار العربية والاسلامية .

الى لبنان والعراق : ولما انتقل مركز النشاط الثوري من فلسطين الى لبنان (بعد انتقال سماحة السيد محمد امين الحسيني واللجنة التنفيذية العليا) استدعي « منيف » الى بيروت واتخذها مقرا لاقامته حتى شهر تشرين الاول ١٩٣٩ اذ قضت الضرورة بانتقال سماحته واخوانه المجاهدين من لبنان الى العراق نتيجة للضغط البريطاني على سلطات الانتداب الفرنسي التي شرعت في اعتقال من تسنى لها اعتقالهم وسجنهم من مجاهدي فلسطين . فبارح « منيف » لبنان الى العراق وقضى مع اخوانه العاملين في الحقل الوطني مدة ١٧ شهرا يعملون من اجل فلسطين ولقوا كل عطف ورعاية من العراق حكومة وشعبا .

وبعد ان انتهك الانكليز حرمة استقلال العراق ونقضوا المعاهدة العراقية ـ البريطانية وحاولوا احتلال العراق بجنودهم وارسال الجيش العراقي الى روسيا بطريق ايران لكن حكومة المرحوم رشيد عالي الكيلاني أبت الانصياع لهم فنشبت الحرب بينها وبين البريطانيين واستمرت شهر أيار ١٩٤١ بكامله وانتهت بخروج رشيد عالي وعقداء الجيش العراقي الاربعة ورئيس أركان حرب الجيش وسماحة الحاج محمد امين الحسيني وعدد كبير من احرار سورية

وفلسطين الى ايران .

الى الموصل : وفي الحرب التي وقعت بين حكومة رشيد عالي الكيلاني والانكليز اشترك عدد كبير من المجاهدين الفلسطينيين مع اخوانهم العراقيين في قتال الانكليز بقيادة الشهيد المرحوم عبد القادر الحسيني في منطقة ابو غريب وتمكنوا من صد الزحف البريطاني بضعة ايام الى ان انهارت المقاومة العراقية المسلحة وفعلت الدسائس الانكليزية فعلها ، فانسحبوا من الجبهة ودخلوا الحدود الايرانية .

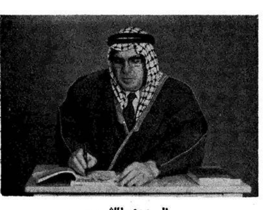
اما « منيف » وعشرات من المناضلين الفلسطينيين فقد انسحبوا الى الموصل بناء على تعليمات تلقوها مفادها ان الجيش العراقي سينسحب الى كركوك فالموصل ليتخذ فيهما خطا دفاعيا ، غير ان المقاومة انهارت بعد وصولهم الى الموصل اثر انسحاب رشيد عالي والضباط العراقيين ، فتألفت في بغداد حكومة برئاسة أرشد العمري أخذت على عاتقها تصفية الموقف .

الى سورية : وبعد ثلاثة ايام من تشكيل الحكومة الجديدة اضطر « منيف » ورفاقه لمغادرة الموصل الى سورية بالسيارات عن طريق تلعفر وسنجار فالجزيرة ومن هذه الى دير الزور فحلب وفي هذه اعتقلتهم السلطات العسكرية الفرنسية وارسلتهم الى بعلبك حيث اعتقلوا في معسكر للفرقة المختلطة هناك .

وفي ذلك الحين كانت سورية ولبنان تحت الحكم الفيشي ، وكان الديغوليون يزحفون على سورية ولبنان بالاشتراك مع القوات البريطانية ، فتم احتلالهما بعد مقاومة ضئيلة . وهنا وقف « منيف » ورفاقه الفلسطينيون موقف الحذر وعملوا على اخفاء اخوانهم المجاهدين في اماكن امينة في سورية ولبنان وتمكن بعضهم من دخول تركيا كلاجئين سياسيين وبعد حين قبلت حكومة انقرة عددا من اعضاء اللجنة العربية العليا كالمرحوم معين الماضي ومحمد عزة دروزة والمرحوم الشيخ حسن أبي السعود واسحق درويش وعددا من المجاهدين الفلسطينيين كعارف عبد الرزاق وحسن سلامة وبعضا من الساسة الفلسطينيين امثال : اكرم زعيتر ، واصف كمال ، ممدوح السخن ، راسم الخالدي وغيرهم . وعددا من الساسة السوريين والاردنيين امثال : الامير عادل ارسلان ، نبيه العظمة ، الدكتور محمد صبحي ابي غنيمة ، الدكتور محمد حجازي ، بينما توجه بعض الفلسطينيين والسوريين والعراقيين جوا الى ايطاليا والمانيا كعادل العضمة ومنير الريس ومحمد العفيفي وسعد الدين عبد اللطيف واكرم الجاعوني وسليم الحسيني واستقروا فيها حتى انتهت الحرب العالمية الثانية بانهيار دولتي المحور .

اما « منيف » فلم تسمح السلطات التركية بدخوله الى اراضيها لنشره مقالات سياسية عنيفة في جريدته « الجامعة العربية » بقلم أمير البيان الامير شكيب ارسلان في نقد تركيا الكمالية لجنوحها الى السياسة العلمانية وانصرافها عن النزعة الاسلامية والشرقية الى النزعة الغربية ولالغائها الخلافة الاسلامية ولاستبدالها الحرف العربي بالحرف اللاتيني والغاء الاحكام الشرعية والاستعاضة عنها بالقانون المدني السويسري وغير ذلك من التجديدات والبدع . فاضطر « منيف » للبقاء في حلب مختفيا في بعض احيائها بضعة شهور ، وبعدها جد رجال المخابرات البريطانية في طلب المجاهدين والساسة الفلسطينيين والسوريين والاردنيين والعراقيين وغيرهم من المناضلين المعروفين بمقاومة السياسة البريطانية الاستعمارية ـ الصهيونية والقوا القبض على عدد منهم فساموهم سوء العذاب واعدموا بعضهم .

واخيرا يسر الله لـ « منيف » سبيل السفر متخفيا الى الحجاز، سالكا طريق البر الى دمشق ومنها الى بغداد فالنجف الاشرف حيث تجمعت قوافل الحجاج العراقيين والايرانيين والسوريين . وفي مستهل عام ١٩٤٢ بارحت قوافل الحجيج النجف وامضت بضعة عشر يوما في قطع الفيافي والقفار وبحار من الرمال في صحراء النفود



البدوي الملثم .

•

الى ان نفد الماء والغذاء وتعطلت السيارات واصبح الحجاج على شفا الهلاك الى ان قيض الله لهم سيارات بعث بها أمير الحدود السعودي فاسرعت في نقل الحجيج الى « حائل » ومن هذه الى المدينة المنورة فجدة فمكة المكرمة .

وامضى « منيف » بقية سني الحرب العالمية الثانية متنقلا بين مكة والمدينة وجدة والطائف ولقي خلالها رعاية من الملك عبد العزيز آل سعود وامراء البيت المالك وتوثقت عرى الصداقة والمودة بينه وبين رهط من افاضل السعوديين .

وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية وافاه الى السعودية الشهيد المرحوم عبد القادر الحسيني قادما من العراق ، بعد ان سجنته السلطات العراقية مع رفاق له اثر انهيار حكومة رشيد عالي الكيلاني، في طريقه الى مصر للمعالجة ، فلما بلغ الرياض استبقاه الملك عبد العزيز آل سعود في ضيافته . واخيرا جاء الطائف ، حيث يقيم « منيف » وقضيا معا نحو سنة ثم ودعه الى القاهرة وفي ربيع عام ١٩٤٦ وافاه « منيف » اليها .

وخلال اقامة « منيف » في مصر علم من الرسائل التي كان يتلقاها من اوروبا ، حيث كان سماحة الحاج محمد امين الحسيني معتقلا وموضوعا تحت الحراسة قرب باريس اثر انهيار المقاومة النازية، ان سماحة المفتي عازم على الخلاص من اسر الفرنسيين الذين اخذ الانكليز واليهود واعوانهم يضغطون عليهم بشدة لتسليم سماحته واحالته على محكمة نورمبرغ ليحاكم كمجرم حرب بداعي تعاونه مع النازيين على ابادة اليهود .

ومثل هذا طلبت يوغوسلافيا محاكمة سماحته بتهمة التعاون مع المحور وتشكيل فرقتين من مسلمي البوسنه لقتال القوات اليوغوسلافية ، لكن الله سهل لسماحته سبيل النجاة فهبط مصر سرا في شهر حزيران ١٩٤٦ ولازمه « منيف » دون افتراق وتالفت برئاسة سماحته « الهيئة العربية العليا » خلف « اللجنة » العربية العليا » وتلت ذلك ايام من الكفاح والعمل المضني ، فجاءت لجنة تحقيق انسكوب(1) وصدر قرار الامم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين وتدويلها ثم اشتعلت نار الثورة في فلسطين لمقاومة سياسة البطش والعدوان ، وبعدها وقفت السياسة العربية الرسمية موقفا انتهى بوقوع الكارثة الكبرى ودخول الحكومات العربية في مفاوضة الصهيونية المعتدية في رودس وفرضها الهدنة .

ثم توالت الاعتداءات الصهيونية لاحراز مكاسب في الجبهات العربية ، وخلال هذا كله كان « منيف » يعمل مديرا لديوان الهيئة

العربية العليا وعضوا فيها .

وقضت الظروف بان تكون بيروت مقرا للهيئة العربية العليا فانتقلت اجهزتها الى بيروت ، واتيح لـ « منيف » ان يواكب القضية الفلسطينية في سائر مراحلها وادوارها .

نماذج من شعره : يتميز شعر « منيف » باللون القومي وتسوده النزعة الوطنية . فما نزلت بقطر عربي مصيبة الا وسجلها شعرا يفيض بالتفجع والتذكير بلفسطين الفجيع :

كنا وكان العيش رغدا   والعرب يستبقون مجدا
كنا أشد لدى النوائب   قوة وأعز جندا
ذهب الذين بنوا لنا   مجدا فليت لهم مردا
تبا لدهر قلب   يمشي بنا عكسا وطردا
يدع الذليل مسودا   ويصير فيه الحر عبدا

من مبلغ عني الكرام   مقالة تسدى فتهدى
اني أرى الحلفاء لا   يرعون للضعفاء عهدا
وأرى الليالي دون ادراك   المنى أحكمن سدا
نبئت أن سراتنا   لا يشترون اليوم حمدا
لبسوا الحرير على السرير   وهادنوا الخصم الالدا
لانت جنوبهم على الديبا   ج يمتهدون مهدا
في خفض عيش ناعم   وهناءة ممسى ومغدى
ناموا عن الوطن الذبيح   ووسدوا الآمال لحدا
لا بأسهم يخشى ولا   أيديهم في الخير تندى
وقست قلوبهم فباتت   كالحجارة أو أشدا
بخل الغني فان سخا   أعطى على كره وأكدى
خان الامانة معشر   قطعوا لاسرائيل عهدا
ومن الدنية ان نقا   د الى الذي نأباه قودا
يا « قدس » تفديك الكرام   وحق بيتك أن يفدى
أعلاج اسرائيل تجمع   أمرها وتروم كيدا
والمسجد الاقصى العظيم   على شفا هول تبدى
هل ماجد يحمي الذمار   ويكشف الكرب الاشدا
أين الغطارف يهرعون   وينهدون اليك نهدا
بالبيض أحسن صقلها   ضرب يقد الهام قدا
قد طلقت أغمادها   لتصير الاعناق غمدا
وبصافنات ضمر   لا تشتكي نصبا وكدا
وعلى « المكبر » فتية   يستعذبون الموت وردا
« عمر » أمير المؤمنين   يخط للبطريق عهدا
و « أبو عبيدة » عامر   ليث العرين يقود أسدا
و « ابن الوليد » تخاله   هولا تمرد واستبدا
قطع المفازة « خالد »   وأنت نواصي الخيل تردى
واذكر « شرحبيل » وعمرا   وادع « عكرمة » المفدى
ضربوا بزنطة ضربة   هدت صروح البغي هدا
واذا ذكرت القادسية فاذكر   الهول الاشدا
واذكر « حذيفة » و « المثنى »   و « ابن مسعود » و « سعدا »
وجحا جحا خفوا الى   غاياتهم عنقا وشدا
اما نسبت قبيلهم   قحطان تلقى او معدا
ساروا الى ورد الردى   ولقا العدى جمعا وفردا
واسأل غداة الروع عنهم   « ابرويز » و « يزدجردا »
واستنبىء التاريخ ما   فعلوا بـ « رستم » اذ تصدى
فتحوا العراق وفارسا   وغزت كتائبهم « خقندا »
وأتوا « نهاوند » و « بلخا »   و « خراسان » و « سندا »
واذكر « صلاح الدين » اذ   لقي الفرنجة واستعدا
هزم الفيالق « يوسف »   تتحرى كرمل الارض عدا

« ريكارد » ينكص مدبرا   والفرا رناط يردى
وبطاح حطين غدت   لكماتهم جدثا ولحدا
هذي فلسطين التي   الفت حياض الموت وردا
هلا ندبت قرومها   فاتتك اشياخا ومردا
انا مساعير الحروب   نزيدها ضرما ووقدا
من رام عيشا طيبا   فليمض نحو الموت عمدا
والحق حق ما جلت   لحفظه سيفا ونهدا

وفي حفلة اقيمت في جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة احياء لذكرى الشهيد عبد القادر الحسيني القى « منيف » قصيدة صور فيها مأساة فلسطين وما انتابها من عوادي الايام وصروف الليالي :

لمن الدار اقفرت والمعالم   غاب عن غيلها الليوث الضياغم
كيف حالت جنانها الزهر صحارى ،   وجاورتها الاراقم
وصروف الزمان البست روضها   الضاحك ثوب الحداد أسود قاتم
أجحيم تلذ بعد نعيم   وسموم من بعد تلك النسائم
ويح نفسي ، اواقع ما تراه   عيناي أم تلك اطياف حالم ؟!

يا فلسطين قد رمتك الليالي   بسهام من الرزايا قواصم
طمعت فيك أشقياء يهوذا   فرمونا بكل أجلف غاشم
ضرجوا بالدما رباك فباتت   كل دار مكتظة بالمآتم
ذبحوا في ثراك كل رضيع   لم تفتق أكمامه كالبراعم
قذفوا بالحديد والنار قبلتك   الاولى واسرفوا في المآثم
وبنو قومنا الاعارب يلهون   يعوذون بالرقى والتمائم
في رغيد من الحياة وصفو   وجنان خضر وعيش ناعم
بخلوا بالسلاح اذ ملكوه   وتساموا في عزة وتعاظم
يملأون الدنيا وعيدا ووعدا   ونقيقا كما تنق العلاجم (٢)
هادنوا الخصم ضلة ثم راحوا   يقرعون الغداة أسنان نادم
ان يثوبوا فذاك خير وابقى   او يناموا فالخصم ليس بنائم
أين بغداد جمرة تتلظى   أين نجد عقبانها والقشاعم
أين أرض الشام تفزع بالخيل   وصنعاء بالقنا والصوارم ؟
أين أيام كندة ونزار   وقريش وحمير والبراجم (٣)
وأياد ووائل وتميم   وحماة الحمى واهل المكارم
كان للعرب دولة وجنود   وحشود من كل أروع صارم
غالها الدهر في بطون الليالي   وطواها في عهده المتقادم
فاستحالت نهبا لكل طموع   وطعاما لكل غرثان طاعم

فتية من بقية السيف قامت   في فلسطين بالامور العظائم
ركبوا الهول يطلبون المنايا   في شواظ النيران والجو قاتم
فاسأل القسطل (٤) الذي ضرسته   بضعة من نيوب تلك الضراغم
و « الحسيني (٥) مقبل وقد بسط الموت   جناحيه والخطب داهم
يا « أبا فيصل (٦)» و «موسى» و «غازي»   وسليل الكماة من فرع هاشم
قد لقيت الردى ببأس شديد   وبثغر يوم الكريهة باسم
ومشت حولك الميامين تترى   في حنين الى الشهادة دائم
وبريق الحديد يلمع حينا   ثم يخفى في عثير متراكم
نعمت عين من رأى الاروع القسام   فخر بيض العمائم
« حسن » الخير ، ذلك الاسد الورد   قضى صريع تلك الملاحم

---

(١) في ٢٨ شباط ١٩٤٧ انتدبت هيئة الامم المتحدة لجنة خاصة للتحقيق في القضية الفلسطينية عرفت باسم لجنة U.N.S.C.0.P
(٢) مفردها « علجوم » ومعناه ذكر الضفدع . (٣) بطن من مذحج وهي قبيلة يمنية. (٤) و (٥)معركة القسطل التي استشهد فيها المرحوم عبد القادر الحسيني يوم ٨ نيسان ١٩٤٨ . (٦) كنية المرحوم الشهيد عبد القادر الحسيني (٧) اشارة الى قول (شوقي) في قصيدته المشهورة عن دمشق
وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرجة يدق

أين « عبد الرحيم » يلقى الاعادي   والمنايا في لجها المتلاطم
وشهيد المزار « فرحان » ظلما   صلبوه في سجنه وهو صائم
و « أبو درة » الذي اسلمته   يد الغدر طعمة للاراقم
و « السعيدان » والشهيد «سرور»   و «الحنيطي» و « الخليل» الاكارم
ومئين من مثلهم والوف   قارعوا البغي بالظبى واللهاذم
ادرجوا في الثرى وماتوا كراما   وبكتهم عواتك وفواطم
نضر الله في التراب عظاما   وسقاها صوب من المزن ساجم
أيها الطامعون فينا رويدا   ان صرح الباغي ضعيف القوائم
قل لمن رام في الحياة خلودا   ليس حي من المنون بسالم
انما الخلد جنة لشهيد   في نعيم عند المهيمن دائم

وفي عام ١٩٢٥ كانت انباء جهاد بطل الريف الامير عبد الكريم الخطابي وانتصاراته تدوي في العالم فنظم « منيف » قصيدة في مدح هذا المجاهد العربي العظيم وتحيته ومنها :

لك الفخر فاصعد ذروة المجد وارتق الى حيث يعيي كل نسر محلق
لك الشرف العالي تليدا وطارفا   بعزمك من حد السنان المذلق
تناهى اليك المجد فالجد صاعد   وذكرك يسري بين غرب ومشرق
تركت بني الدنيا نشاوى كانما   سقيتهم من كاس خمر معتق
وقدت الى الهيجاء فرسان أمة   على كل نهد من كميت وأبلق
وغادرت في اسبانيا كل غادة   تنوح على اوصال شلو ممزق
ألم تر كيف الله بدد جمعهم   وشردهم في كل بيداء سملق
فلا رأبوا أو انهم شارفوا حمى   ولا جمعوا أشتات شمل مفرق
سقيتهم كاسا دهاقا كانما   مذاقتها من حنظل متفلق
لقوا غير ما خالوا فطاشت عقولهم   وقطع منهم كل زند ومرفق
فولوا يرومون النجاة من الردى   وحكم سيف الحق في كل مفرق
وقد حشدوا عد الحصى وتكالبوا   يظنون ادراك المنى بالتفوق
فيالق تزجى للهلاك فترتمي   ممزقة الاجساد أي ممزق
فباتوا يعضون الاكف ندامة   وبات « ديرفييرا » بهم مؤرق
وصار عزيز القوم ان يلق طيفك   المروع في أحلامه منه يفرق

وقفت وقد أوردتهم مورد الردى   تلفت فيها لفتة المتشوق
ربوع بها الاسبان حطوا رحالهم   فكبكبتهم ما بين ربو وخندق
فنلت الذي قد كنت ترجو مناله   وحققت أمرا لم يكن بالمحقق
تتوق اليه في فلسطين امة   ويطمع في أمثاله شعب جلق
لئن أطردوا فالحزم ليس بمطرد   وان خرقوا فالرأي ليس باخرق
هم قسطوا والقسط هلك لاهله   ومن ينحرف عن منهج الحق يصعق

فمن مبلغ عني كرام عشيرتي   وأهل النهى من مغربي ومعرق
بان الفتى (عبد الكريم) تضوعت   خلائقه من فار مسك مفتق
جلا كل مكروه احاط بقومه   بسيفين من عزم ورأي موفق
فبوركت من ذي نجدة عربية   يرد صداها كل غرب ومشرق
اذا جن ليل الخطب واحلولك الدجى   فانت سناء الكوكب المتالق

وفي شهر ايار من عام ١٩٢٧ تنادى ادباء وشعراء العالم العربي لمبايعة احمد شوقي على امارة الشعر واقاموا لهذه المناسبة اسبوعا اطلقوا عليه « اسبوع شوقي » واشترك فيه رجالات العرب واشهر ادبائهم من المحيط الى الخليج ومثل فلسطين سماحة الحاج محمد أمين الحسيني ومحمد اسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني ومحمد علي الطاهر صاحب « الشورى » ومنيف الحسيني وقد القى قصيدة في تحية اسبوع امير الشعراء ومنها قوله :

سقى الله في أرض الكنانة أربعا   مفتحة الانوار ، مخضلة الربا
ذكرت بها ربعا كأن نسيمه   ذكي الغوالي ينفح العرف طيبا
واعين آرام كأن حداقها   تحلين من صافي الدجنة غيهبا
وجنات أنوار تضاحك في الضحى   أفانين ، نصاعا ، ووردا ، ومذهبا
منازل اخواني ، ودور عشيرتي   تركت بها خلفي لذي اللهو ملعبا

هبطنا الى الوادي الاغن وارضه   فكانت لنا أما ، وكانت لنا أبا
وما هي الا نهلة منه فارتوت   نفوس لنا قد كن من قبل لغبا
ولولا التقى والبر بالاهل والحمى   وحسبان هذا القلب في الحب قلبا
لقلت ذراني بارك الله فيكما   خليلي ، في أرض الكنانة واذهبا
اليك امير الشعر تقذفنا النوى   وان أنت أغلبت المهور لنخطبا
وهذي وفود شفها دلج السرى   اليك تناهت موكبا ثم موكبا
تخير من بحر المعاني لآلئا   حسانا الى «شوقي» ودرا مثقبا
اذا لحنت كانت غناء مطربا   وان نظمت كانت قريضا مهذبا
اذا احتملوها من بعيد غرائبا   فاهداؤها اللجي قد كان أغربا
أأحمد قد جئنا ظماء وانما   أتينا الى مصر ظماء لنشربا
سحابك هذا لن يرى اليوم ممسكا   وهل كان قبل اليوم برقك خلبا؟!
عهدنا معين الشعر قبلك ناضبا   كما كان روض الشعر قبلك مجدبا
ملكت زماما منه صعبا قياده   فذلل اعطافا ووطأ منكبا
اقمت لهذا الشرق في الشعر دولة   وكنت له فيه الامير المحببا
غذوت بنيه منك فضلا وحكمة   ورويتهم من سحر معناك صيبا
وقد كنت في سر الليالي خبيئة   فاشرقت في افق الفصاحة كوكبا
وذكرت أضحى في فم الدهر قائما   يجوب بلاد الله شرقا ومغربا
وما أنت الا منهل ان تدفقت   مناهل شتى كان اعذب مشربا
سللت حساما من لسانك ماضيا   حفظت به للنيل حقا مغيبا
بني مصر لا حق هناك ومنطق   اذا لم تحالفه الاسنة والظبى
وهذي ديار الشام (والقول قوله)   تمد لدق (٧) الباب زندا مخضبا
نمتنا واياكم عروق الى العلى   عتاق فما يزددن الا تشعبا
سنحفظ عهد الود والله شاهد   ونذكر هذا القطر ريان مخصبا
ومجلسنا في الرحب ما ان ترى به   من الناس الا الاريحي المؤدبا
وايام انس وضحا غير نكر   زواهر ان قلت المنى كن أعذبا
لكم في اكتساب المكرمات مذاهب   وان لنا في الحمد والشكر مذهبا
فلا اقفرت منكم ربوع أو اهل   ومصباح هذا النور في الشرق لا خبا

عمان ـ الاردن

البدوي الملثم

نداء الطلول

الى امريء القيس

سألتك ان تعيديني وليدا
له عيناك والوجه الجميل
فقد أبلى الجديد جديد ثوبي
ومال بظل راحلتي الاصيل
وما قولي قفا : الا لاني
شجتني الارض تهتف والطلول
فمن يرجو الخلود بغير حب
تغور قبل يدركه الافول
وما طلل تعفى غير قلب
تهاوى حين لج به الذبول
سألتك أن تعيديني فنحيا
معا والعمر بستان ظليل
سأولد في غدي غردا يغني
اذا ما القلب أشجاه الرحيل

وديع ديب



الدكتور محمد رجب البيومي

تأثير ابن شهيد في ابي العلاء

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

وجدت في دوائر الاستشراق بحوث كثيرة حول صلة رسالة الغفران بالكوميديا الالهية لدانتي وأسرف الكاتبون في هذه الناحية اسرافا لا يزال يتجدد ومع هذا السرف المسرف في تأكيد العلاقة بين الاثرين الادبين الكبيرين او نفيها فاننا لم نر فيما قرأناه لهؤلاء بحثا يحلل صلة الغفران بالتوابع والزوابع تحليلا جديا مدعما ، وعلى افتراض ان تكون الصلة مقطوعة مجذومة افلا يكون هذا القطع المجذوم موضع بحث يقضي على الشبهات ! مهما كان الاثران النفيسان في ادب واحد ، وفي حقبة واحدة مما يدعو الباحث الى نظر بصير !

ولكن كتاب العرب لم يغفلوا ذلك ، فمنذ عرفت رسالة التوابع والزوابع سنة ١٩١٥ في مصر حين اهتم بها الاستاذ محمد المهدي لاول مرة في عصرنا الحديث ، فتحدث عنها لطلابه بالجامعة المصرية القديمة ــ وهم فيما بعد ــ ذوو نباهة وتمحيص ، منذ ذلك ، والآراء تختلف حول صلة التوابع والزوابع برسالة ابي العلاء فتارة تؤكد هذه الصلة ، وتارة تجزم بامتناعها ، ونحن ابناء العرب قد ورثنا ابن شهيد وأبا العلاء معا ، فلن نتحيز لاديب منهما على الاخر ، ولكننا حين نبحث هذا الموضوع تكشف عن وجه الحق كما يتراءى لناظره ، ونقدم من الادلة ما نراه يميل براي على رأي ، ويهمنا ان تنفرج دائرة هذه الآراء عن صواب سديد .

واذا كانت رسالة ابي العلاء من الشهرة والذيوع بحيث لا تحتاج هنا الى تلخيص او تحليل ، فان رسالة ابن شهيد تحرز كثيرا من طرافتها الخالبة ، فقد تحدث صاحبها عن رئي أديب من الجن كان يصاحبه في رحلته الى ديار عبقر ، يسير به كالطائر يجتاب الجو فالجو ويقطع الدو فالدو حتى يشارف أرضا لا كأرضنا وجوا لا كجونا متفرع الشجر عطر الزهر فيصل به الى دارات ملهمي الشعر ويناقش معه صاحب امرىء القيس يستمع منه ويسمعه ثم يفادره الى اصحاب طرفة وقيس بن الحطيم ، وابي تمام والبحتري وابي نواس وكلهم يسمعه ويجيزه ثم ينتهي به الى شياطين الكتاب ويسميهم ابن شهيد خطباء فيلقاهم في محفل واحد ، ويسامر أصحاب الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان على نحو يضمن الفلح والانتصار لابن شهيد ، وانا لم أعرف ان للكتاب شياطين كما للشعراء الا حين قرات رسالة التوابع والزوابع فلعل ابن شهيد يشير الى ان الالهام ذو اصل واحد عند أولئك وهؤلاء وقد مضت الرسالة تفتن في عرض هذه الرحلة الادبية عرضا يستريح له القارىء وان ثار على بعض ما يتردد بها من الاحكام القاطعة كما يعتنقها ابن شهيد ويحاول ان يقنع بها الناس !

واعجب ما يروقني في التوابع والزوابع قدرة صاحبها على الوصف المناسب ، وتدسسه الى مواطن الغمز في حيوات الادباء واشعارهم فصاحب أبي تمام مثلا يأوى الى شجرة غيناء يتفجر من أصلها عين كمقلة حوراء فاذا ناداه أشتق الهواء صاعدا من الماء (وكان ابو تمام سقاء يبيع الماء أول أمره) فيساله وما الذي أسكنك قعر هذه العين فيقول حيائي من التحسن باسم الشعر وانا لا احسنه ، وصاحب أبي الطيب المتنبي صلف فخور يسمع غيره ولا ينشد لنفسه وهو فارس على فرس بيضاء وبيده قناة قد أسندها الى عنقه وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عذبة صفراء وقد حياه فأحسن الرد ناظرا من مقلة شوساء قد ملئت تيها وعجبا . وصاحب بديع الزمان الهمذاني يسمع ابا عامر بن شهيد حاسدا مغيظا ثم يضرب الارض برجله فتنفرج له عن مثل برهوت يتدهدى اليها فتجنح اليه ويغيب بها . اما صاحبا الجاحظ وعبد الحميد فيقولان له : لنخبط منك في بيداء حيرة وتفتق اسماعنا منك بعبرة ، ولا ندري انقول أشاعر أم خطيب فيقول ابن شهيد الانصاف أولى والصدع بالحق احجى ولا بد من قضاء فيردان عليه انصرف فانت شاعر وخطيب معا .. ويمضي والابصار اليه ناظرة ، والاعناق نحوه مائلة .

اما صاحب أبي نواس فما أحسن ما تحدث عنه

(*) نشرت احدى المجلات العلمية اقل من نصف هذا البحث مبتورا فرايت ان انشره مبسوطا وافيا بمجلة الاديب . ا هـ

ابن عامر ، رآه في دير حنة وهو دير عظيم تعبق روائحه وتصول نوافحـــه ، واقبلـت نحـوه الرهابين مشددة بالزنانير ، وقد قبضت على العكاكيز ، بيض الحواجب واللحى ، اذا نظروا للمرء استحيا مكثريـن للتسبيـح ، وعليهم هدى المسيح ، فقالوا أهلا بك من زائر ؟ ما بغيتك؟ فقال صاحب ابي نواس . فقالوا انه في شرب الخمـرة منذ أيام عشرة وما ستنتفع به ، قال ابو عامر : ونزلنـا وجاؤا بنا الى بيت قد أصطفت دنانه وعكفت غزلانه وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسبلة قد آفترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، وحواليه صبية كأظب تعطو الى عرارة ، فحييناه ، فجاوب بجواب لا يعقل لغلبـة الخمر عليه ، فأنشدناه بعض خمرياته (وذكر ابن شهيد فصاح من حبائل نشوته ، واستدعى ماء قراحا فشرب منه وغسل وجهه فأفاق واعتذر الي من حاله فأدركتني مهابته واخذت في اجلاله ، واخذت أنشده قصائدي فقام يرقص ويردد ، ويقول : هذا والله شيء لم نلهمه نحن ، ثم استدناني فدنوت منه فقبل بيـن عيني وقال اذهب فانك مجاز .

على هذا النمط البديع سارت رسالــة التوابـع والزوابع ، فأعجبت القراء وتصارع حولها الباحثون من الادباء . ونحن هنا نوجز ما عثرنا عليه مما قيل معقبين بما يتضح لنا بعد الامعان .

أشار الاستاذ الدكتور احمد ضيف في كتابه «بلاغة العرب في الاندلس » الى ان ابن شهيد قـد تأثر بأبـي العلاء . وهو أول باحث عربي أصدر حكمه في هـــذه المسألة ، وكان دليله الاول ان شهرة أبي العلاء قد طبقت المشرق والمغرب فلا بد ان يكون ابو عامر قد قرأ رسالته واحتذاه .

يقول الدكتور ضيف ص ٤٨ « وقـد كتب رسالة هي أشبه برسالة الغفران مـن حيث أسلوبهـا الادبـي وسماها التوابع والزوابع وكان يقلد ابا العلاء في ذلـك لانه ادرك عصره ولان شهرة ابي العلاء كانت ذائعة فـي المشرق والمغرب ، وكان اهــل الاندلس يقلدون المشرق في كل شيء » .

واستاذنا الكبير الدكتور ضيف كان يكتب دراسة موجزة منهجية في أدب الاندلس لاول مرة فــي العصر الحديث ، فلم يكن من همه ان يقف وقفات طويلة عنـد كل رأي . ولو فعل لامتد به التأليف الى اجزاء طوال ، وهذا لم يكن ، لانه كان يلقي الاضواء الاولى علـى تراث ثمانمائة عام ، ويجتهد قدر الطاقة ان يحشد من المؤلفات والمؤلفين ما يسمح به مجال مذكرة جامعية تلقى علـى الطلاب . ولسنا شهد الله نضائل من كتابه الرائد فحسبه ان كان الخطوة الاولى في طريق المكتبة الاندلسية المعاصرة ولكننا نقول أن اثر العجلة السريعة قد ظهر في حكمـه على ابن شهيد بتقليد ابي العلاء اذ ان اقوى حجة لديـه ان عصر ابن شهيد يتدرج في عصر ابي العلاء فقد عاش من سنة ٣٨٢ الى ٤٢٦ وعاش المعري من سنة ٣٦٣ الـى سنة ٤٤٩ ، وكانت شهرته اذيع واشهر ، ولو سلمنا ان شهرة ابي العلاء كانت مستفيضة في الاندلس ما منعه ذلك ان يقرأ ادب الاندلس ويرجع اليه ، واذا كان المعري المتمكن المتمرس يجلس مجلس الاستاذ من ابن شهيد الشاب اللاهي في تقدير مؤرخي الادب ، فكم من استاذ تأثر ببعض افكار تلاميذه ، فليست استفاضة الشهرة وحدها دليلا يعتمـد عليه في ذلك حتى يتقدم به الدكتور ضيف في تأييـــد حكمه دون ان يشفع به بعض المبررات المحتملة . ومــا كان اكثرها لو اتسع امامه المجال على اطمئنان وئيد .

ولكن الدكتور زكي مبارك في الجزء الاول من النثر الفني ، قد وقف تجاه المسألة وقفة طويلة ، فتأمل كلام الدكتور ضيف ثم اتضح له ما يخالفه ، واستند الـى مؤكدات ملموسة من المنطق والتاريخ فصلها حين قــال ص ٢٥٩ :

« وقد رأينا ان نحقق هذه المسألة فبحثنا طويلا عن التاريخ الذي وضعت فيه رسالة التوابع والزوابع فلـم نهتد ، ولكننا رأينا في الرسالة نفسها ما يدل على انـه وضعها وهو كهل ، فقد جاء على لسانه ما يشير الى ان من اخوانه من بلغ الامارة وانتهى الى الوزارة .. ولكن لا ينبغي ان تخدعنا هذه التعابير ، فهناك نص يدل على انـه وضعها وهو شاب ، فقد حدثنا في التوابع والزوابـع ان الجن قالوا له : بلغنا انك لا تجارى في ابناء جنسك ولا يمل من الطعن عليك والاعتراض لك فمن أشدهم عليك .. وقد اجاب : جاران دارهما صقب وثالث نابته نـوب فامتطى ظهر النوى وانتضى على لسانه عنـد المستعين » وهذا يشعر بانه كتب هذه الرسالة في عهد المستعين وقد بويع بقرطبة سنة ٤٠٠ ثم جددت بيعته سنة ٤٠٣ ومات مقتولا سنة ٤٠٧ ومن هنا نرجح ان رسالة التوابــع والزوابع كتبت بين سنة ٤٠٣ ، سنة ٤٠٧ .

هذا جانب من المسألة اما الجانب الاخر فهو التاريخ الذي وضعت فيه رسالة الغفران واذا كانت الرسالـة جوابا على رسالة ابن القارح فقد عدنا الى رسالة ابـن القارح فانتهنا الى قوله : « وكيف أشكو من قاتني وعالني سبعين سنة ، فعرفنا أنه وضعها بعد ان جاوز السبعين ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة ٣٥١ فاذا اضفنا الى هـذا الرقم ٧٠ وجدناه كتب رسالته حوالي سنة ٤٢١ وتكون النتيجة ان رسالة الغفران كتبت حوالي سنة ٤٢٢ ، واذا قدرنا ان ابن القارح قال نيفا وسبعين وللنيف دلالاتـه وقدرنا أن ابا العلاء اعتذر عن تأخير الرسالة بانه يستطيع بغيره كان من الممكن ان تكون رسالة الغفران كتبت بـين سنة ٤٢٢ ، سنة ٤٢٤ » .

ثم قال الدكتور مبارك : « ونتيجة هذا التحقيق ان رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوابع والزوابع بنحـو

عشرين سنة ، وصار من المرجح ان يكون ابو العلاء هو الذي قلد ابن شهيد ، وكما كان الاندلسيون يقلدون اهل المشرق في كل شيء كان اهل المشرق يحرصون اشد الحرص على متابعة الحركة الادبية في الاندلس بدليل ان رسائل ابن شهيد ذاعت في الشرق ودونها المؤلفون الشرقيون قبل ان يموت وقبل ان توضع رسالة الغفران»

نتيجة مضادة قد انتهى اليها الدكتور مبارك وهي ذات دليلين ، دليل قطعي ودليل راجح . فالدليل القطعي ان ابن شهيد مات سنة ٤٢٦ بعد مرض اقعده مدة طويلة، وقد كتبت رسالته قبل ذلك باعوام كثيرة قدرها الدكتور مبارك بنحو عشرين .. والمؤكد انها اقل من ذلك كما قرر الدكتور احمد هيكل ، وسيأتي توضيح رأيه عن قريب .. هذا هو الدليل القطعي ، اما الدليل الراجح فهو ان ابا العلاء تأثر بابن شهيد لان رسائل ابن شهيدذاعت في المشرق ودونها المؤلفون الشرقيون قبل ان يموت ابن شهيد وقبل ان توضع رسالة الغفران .. فلا بد ان تكون قد انتهت الى ابي العلاء وقد بحثت في كتب المشرق التي عناها الدكتور مبارك فرأيت ان يتيمة الدهر للثعالبي هي التي تحدثت عن ابن شهيد في حياة ابي العلاء فذكرت بعض شعره وبعض نثره دون ان تشير الى رسالة التوابع ، وكان علي بعد ان اثبت شيئين هامين في هذا الصدد ، الشيء الاول ان الثعالبي كان يعرف رسالة التوابع والشيء الثاني ان ابا العلاء قد قرأ اليتيمة .

أما ان الثعالبي كان يعرف رسالة التوابع ، فواضح من مختاراته الشعرية والنثرية لابن شهيد ، اذ ان من يقرأ الجزء الثاني من يتيمة الدهر مطبعة حجازي يجد المختارات قد جاءت ابتداء من ص ٣٥ كما يلي :

المقطوعة الاولى مختارات من قصيدة « شجته طلول من سليمى وادور » ص ٣٥ ج ٢

المقطوعة الثانية مختارات من قصيدة « أمن رسم دار بالعقيق محيل » ص ٣٦ ج ٢

المقطوعة الثالثة مختارات من قصيدة « منازلهم تبكي اليك عفاءها » ص ٣٧ ج ٢

المقطوعة الرابعة مختارات من قصيدة « أبكيت اذ ظعن الفريق فراقها » ص ٣٧ ج ٢

المقطوعة الخامسة مختارات من قصيدة « أفي كل عام مصرع لعظيم » ص ٣٩ ج ٢

المقطوعة السادسة مختارات من قصيدة « هذه دار زينب والرباب » ص ٣٩ ج ٢

المقطوعة السابعة مختارات من قصيدة « اصفيح شيم أم برق بدا » ص ٤٠ ج ٢

المقطوعة الثامنة مختارات من قصيدة « أبرق بدا أم لمع ابيض فاصل » ص ٤١

المقطوعة التاسعة مختارات من قصيدة « هاتيك دارهم فقف بمغانيها » ص ٤٢

المقطوعة العاشرة مختارات من قصيدة « ومرتجز القى بذى الاثل كلكلا » ص ٤٣

المقطوعة الحادية عشرة مختارات من قصيدة ص ٤٣

هذه القصائد نقلت هكذا وفق ترتيبها في رسالة التوابع والزوابع كما ذكرها ابن بسام بالذخيرة ١ — ١ ابتداء من ص ٢١٣ حيث المقطوعة الاولى وص ٢١٤ حيث المقطوعة الثانية وص ٢١٦ حيث المقطوعة الثالثة و ص ٢١٧ حيث المقطوعة الرابعة و ص٢١٨ حيث المقطوعة الخامسة وص ٢٢٠ حيث المقطوعة السادسة و ص ٢٢٣ حيث المقطوعة السابعة و ص ٢٢٦ حيث المقطوعة الثامنة و ص ٢٢٨ حيث المقطوعة التاسعة ولم يذكرها ابن بسام بطولها كما جاءت في اصل الرسالة لانه سبق ان ذكرها ص ١٧٣ فلم يشأ التكرار ، و ص ٢٣٦ حيث المقطوعة العاشرة ، وص ٢٣٧ حيث المقطوعة الحادية عشرة .

فتوالي المختارات وفق ترتيب رسالة التوابع والزوابع ، ينطق بأن الثعالبي قد نقل عنها وانها كانت تحت يديه حين حدثه ابو سعيد بن دوست (ص ٢٥ ج٢) عن ابن شهيد ولئن جاءت المختارات ناقصة الابيات عن قصائد الرسالة فان الثعالبي قد اختار منها ما راقه وليس له ان يتقيد بجميع ما قال ابن شهيد ، شأنه في ذلك شأن غيره من الشعراء ، أما مختارات الثعالبي النثرية فهي ايضا من الرسالة مثل وصف البرغوث والبرد والبعوض والماء والنار ، واذا كانت بعض هذه الاوصاف لا توجد الان فيما رواه ابن بسام ، فالسبب واضح وهو ان ابن بسام يعترف انه لم يرو جميع الرسالة ، وانما ينقل بعض المختارات فما جاء به الثعالبي مما ليس في الرسالة — على ندرته — قد اغفله ابن بسام مع ذيوعه لدى غيره . ولو ذكرت رسالة التوابع بنصها في الذخيرة لرأينا كل ما جاء .

اما ان ابا العلاء قد قرأ اليتيمة فذلك ما توحي به البداءة لان كتاب الثعالبي قد صدر في حياة ابي العلاء وكان له ضجيج ورنة . اذ شرقت اليتيمة وغربت ، وتحدثت عن شعراء يعاصرون شاعر المعرة ومن الطبيعي ان يسأل عنهم في مجالسه من تلاميذه وان يصدر فيهم رأيه بل ان الثعالبي تعرض لابي العلاء اذ نقل احاديث الادباء عنه وروى بعض اخباره واشعاره وليس من المعقول ان يخفى ذلك عن طلعة بصير كأبي العلاء قال ياقوت الحموي في الجزء الثالث من معجم الادباء ص ١٢٠ دار المأمون .

وقال ابو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر « وكان حدثني ابو الحسن الدلفي المصيصي الشاعر وهو من لقيته قديما وحديثا في مدة ثلاثين سنة قال : لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب رأيت شاعراً ظريفا يلعب الشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الجد والهزل يكني أبا العلاء وسمعته يقول ان احمد الله على العمى

كما يحمده غيري على البصر قال : وحضرته يوما وهو يملي جوابا بكتاب ورد عليه من بعض الرؤساء (وذكر الابيات ثم قال) وانشد في نفسه :

لست ادري ولا المنجم يدري — ما يريد القضاء بالانسان
غير انـي أقول قول محقق — قد يرى الغيب فيه مثل العيان
ان مـن كان محسنا فابكنيه — لجميل عواقب الاحسان ! »

فرسالة التوابع ذاعت في المشرق ، وصاحبها مشهور تحدثت عنه يتيمة الدهر وهي بعد اوسع ذخائر الادب أشتهارا ، وقرأها ابو العلاء فعرف ابن شهيد دون جدال ..

لقد بان اذن بعض الحق في رأي الدكتور مبارك ، ولكن الدكتور احمد امين في الجزء الثالث من ظهر الاسلام ص ٢١٠ ينسب هـذا الراي لبعض المستشرقين دون ان يسميه فيقول ما نصه ص ٢١٠ ج٣ الظهر :

« وقد ظن قوم ان التوابع والزوابع وضعت تقليدا لرسالة الغفران ، ورأى بعض المستشرقين ان العكس هو الصحيح وان ابا العلاء هو الذي قلد ابن شهيد ورجح ان التوابع والزوابع الفت قبل رسالة الغفران بنحو عشرين سنة ، وذلك لان ابن شهيد ذكر في رسالته ما يدل على انه الفها في عهد المستعين وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الناصر وكانت مدة حكم المستعين هذا من سنة ٤٠٠ الى سنة ٤٠٧ (الصحيح انه خلع من ٤٠٠ ــ ٤٠٣ وولى بعد ذلك) .

كما نعلم ان أبا العلاء الف رسالة الغفران ردا على ابن القارح ، وكان أبو العلاء قد بلغ نحو السبعين كما تدل عليه فقرة في الرسالة نفسها ، فيكون قد كتب رسالته حوالي سنة ٤٢٢ وعلى هذا تكون رسالة التوابع والزوابع كتبت قبلها بنحو ٢٠ سنة وقد أخذ ابو العلاء الفكرة وطبقها تطبيقا لطيفا ، ونحا بها نحوا يخالف بعض الشيء رسالة ابن شهيد وان كان أساس الفكرة عند ابن شهيد ودانتي وابي العلاء واحد » .

وارجح ان صاحب هذا البحث هو الدكتور زكي مبارك اذ لو سبق به بعض المستشرقين لذاع واشتهر ، واظن ان الدكتور احمد امين قد سها حين عزاه الى غيره لانه قرأ النثر الفني وعده بين مراجعه اخر الكتاب . ولو تأكد من سبق غيره في ذلك لذكر اسمه على الاقل .

ثم جاءت السيدة الدكتورة بنت الشاطىء تعلن رايها في هذه المسألة ببحثها القيم عن « الغفران » وقد نالت به درجة الدكتوراه ، بتقدير ممتاز سنة ١٩٥٠ فذكرت رأيي الدكتورين احمد ضيف وزكي مبارك مؤكدة ان دعوى التشابه والتقليد بين الرسالتين قولة جديدة في عصرنا لم يقل بها سوى قلة لم تتخصص في هذا الموضوع ولا هي تفرغت لتحقيقه ، وانما تناولته جملة فيما تناولت من مواضيع عامة في النثر العربي اما الاقدمون فلم يذكروا من ذلك شيئا على كثرة ما ذكروا من تأثير الادب المغربي بأدب المشرق ، وعلى ما أحصوه من معارضات كتابهم وشعرائهم لابي العلاء ، ص ٣٠٩ من كتاب الغفران .

وانا لا ادري كيف تجزم الدكتورة الفاضلة ان امثال احمد ضيف وزكي مبارك واحمد امين ــ فهو بين ذوي الراي في المشكلة وان لم تنص عليه ــ قلة لم تتخصص في الموضوع . وما معنى التخصص لديها ؟ أيكون مفهومه ان يصدر الكاتب مؤلفا خاصا في هـذه الناحية دون ان يتعرض له في مؤلف عام . والا كان غير متخصص ..

واذا كان ذلك هو ما تعنيه أفيجوز لنا ان نقول انها اذا تكلمت عن المتنبي او شوقي او ابي نواس او اي اديب عربي لم تكتب عنه مؤلفا خاصا تعد غير متخصصة فلا يجوز لها ان تصدر الراي الادبي الا في كتاب كبير خاص ذي صفحات ، لا شك أننا نظلم الدكتورة الباحثة لو قلنا لها ذلك . كما ظلمت زكي مبارك واحمد ضيف حين سلبت عنهما الاختصاص دون مبرر معقول . ثم اني لم أر من الباحثين الاقدمين من عنى باحصاء معارضات كتاب الاندلس لابي العلاء ؟ من هؤلاء ؟ وفي اي الكتب ؟ حتى تقول الدكتورة ، وعلى ما أحصوا من معارضات كتابهم وشعرائهم بالاندلس لابي العلاء .

ثم تقول الدكتورة الفاضلة ص ٣٠٩ « وكان على القائلين بمحاكاة احدى الرسالتين للاخرى ان يقفوا عند هذا الصمت من الاقدمين ، وان يفسروا لنا كيف غاب هذا عن مثل مروان بن حيان المؤرخ الاندلسي المعروف بالصدق والدقة وقد كان قريبا من عصر ابن شهيد وعن مثل ابي النصر الفتح بن خاقان وعن مثل ابي الحسن علي بن بسام وهو حجة ثقة انهم اذ يتحدثون عن التوابع والزوابع يصفونها بما يصفون ، أثرا مبتدعا لا رسالة مقلدة » .

أما الصمت التي سألت عنه السيدة الفاضلة فله ما يبرره دون نزاع ، لان الدكتورة نفسها تعلم ان الرسالة لم تكن مشهورة بين اثار أبي العلاء قبل القرن الثالث عشر ، وقد قالت الدكتورة بنت الشاطىء بالذات في مقالها عن رسالة الغفران بالعدد السادس من المجلد الثاني من سلسلة تراث الانسانية ٥ يونيه سنة ١٩٦٤ ص ٤٢٢ ما نصه .

« وحتى القرن الثالث عشر الهجري لم يكن المعروف عنها يتجاوز كلمات قصاراً ذكرها مؤرخوه في ترجمته وقد اكتفى القفطي في انباه الرواة باثباتها في فهرس مصنفاته بين رسائله الطوال التي تجري مجرى الكتب المصنفة وكذلك فعل سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان فذكرها بين المصنفات الحسان لابي العلاء ، وابو القاسم الكلاعي المغربي الذي اشار اليها في أحكام صنعة الكلام بين رسائله التي لها بال ، واخرون تحدثوا عنها في بضع جمل مثل ياقوت الحموي والذهبي والصفدي وابن

العديم ثم قالت الدكتورة ومن مجموع هذا نخرج بأن المعروف عنها الى القرن الثالث عشر هو انها من رسائل أبي العلاء الحسان الطوال التي تجري مجرى الكتب المصنفة في مجلد واحد وقد احتوت على مزدكة واستخفاف ، وفيها ما هو من امارات سوء عقيدته وقبح مذهبه ما يدل على تمكنه من الادب واطلاعه على اللغة ص ٤٢٣ » .

فاذا كان هذا هو المعروف عنها في الشرق باعتراف الباحثة الجليلة فكيف تريد ان يعرف عنها ابن حيان والفتح وابن بسام اكثر مما يعرف المشرقيون ؟ أعرفت اذن سر الصمت من هؤلاء .. انه واضح صريح فالرسالة لم تشتهر بالاندلس شهرة غيرها من اثار ابي العلاء .

على ان الباحث المتأمل يقرأ قول الدكتورة عن ابن حيان والفتح وابن بسام « انهم اذ يتحدثون عن التوابع والزوابع يصفونها بما يصفون اثرا مبتدعا لا رسالة مقلدة » .

فيرى ان هذا القول يخدم الحق من طرف واحد فقط لانه يثبت الابتكار لابن شهيد . وهو ما نذهب اليه ولكنه لا يفيد من ينكرون تأثر الغفران بالتوابع اطلاقا . ومن بينهم الدكتورة الفاضلة . فالتوابع مبتكرة مبتدعة وهذا حق . ولكن اين مثل هذا القول من هؤلاء عن رسالة الغفران .

وتمضي الدكتورة الباحثة في الاستدلال فتقول ببعض التصرف ٣١٢ ـ ٣١٤ :

لقد كان هذا يغنينا عن الرد على دعوى التشابه لكننا مع ذلك نمضي في النظر في الرسالتين فنرى ما بينهما بعيدا . من المسلم به ان بينهما اوجه تشابه . لكنها ليست خاصة بهما وانما هي من الظواهر الادبية التي يمكن أن تلتمس عند غيرهما من أدباء العصر او في الآداب على وجه العموم . صاغ كلاهما احكامه الادبية في اسلوب شائق على طريقة الحوار ، ولكن ليس هذا مما اختص به أحدهما حتى يؤثر بادعاء السبق اليه ، وقام كلاهما برحلة في عالم الخيال انطق فيها الجن والحيوان لكنا نلقى مثل هذا في القصص والاساطير واخيلة الشعراء ، واراد كلاهما عرض براعته في الصنعة وتفوقه في الحفظ والانشاء ، ولكن ذلك مما يمكن ان يقال في كل ما كتب الرجلان وغيرهما من صناع الكلام ، واحب كلاهما ان يبهر صاحبه (الذي بعث برسالته اليه) ولكن أي اديب لا يتجه الى مثل ذلك .

وهب شيئا من هذا التشابه في الاسلوب والهدف قد كان فكيف يقوم وحده دليلا على التشابه اذا اختلف جوهر الموضوع وتباينت روح الكاتب ، وتغيرت شخصية البطل ان رسالة الغفران بطلها ابن القارح اما ابو العلاء فيتوارى كما يتوارى الملقن وراء الستار لا يظهر على المسرح ولا يذكر اسمه على لسان . والتوابع بطلها ابن شهيد نفسه كاتب الرسالة ومؤلف الرحلة لا يتوارى في مشهد من مشاهدها ولا يقوم ثم حوار او عرض ادبي الا كان هو الشخصية الاولى .

الغفران تصور اشواق ابي العلاء وترسم احلامه وتسجل رؤاه وتعرض آراءه ومذهبه في النقد والتوابع والزوابع ديوان من شعر ابن شهيد ومجال لانشاء قصائده ابو العلاء متفنن حافظ راوية وابن شهيد شاعر فخور » .

هذه هي حيثيات الدكتورة بنت الشاطىء ومن يعيد النظر فيها يرى أنها كانت تحتم ان يكون النصان متقاربين تمام التقارب حتى تقول بالمحاكاة . وهذا بعيد ، لاننا في قضية الموازنة بين النصوص الادبية نفرق بين التأثر والاحتذاء فالتأثر ان يستلهم اللاحق سابقا يلهمه ومهما ابتعد عن جوه ونأى عن مسرحه ، فحسبه ان وجه عينه الى افق جديد لم يكن يخطر على باله من قبل . فلو سار في طريق غير طريق صاحبه ما قدم ذلك شيئا ولا اخر في جوهر القضية ، وحسبه ان اراه السبيل ، فابن شهيد قد أبتكر الكتابة عن بعض عوالم الغيب فتأثر به ابو العلاء واحب أن يكتب عن بعض هذه العوالم ايضا وان سار الاول فيطريقالجن والثاني في طريق الجنة والنار . هنا نحكم للسابق بالتأثير وللاحق بالتأثر .. ولن نتطلب منه ان يحذو حذو سابقه والا فقد شخصيته الادبية واصبح تابعا هزيلا لا يضيف الى الادب شيئا ذا بال ، ومعاذ ابي العلاء ان يكون كذلك .

نعم ان كليهما صاغ احكامه في اسلوب شائق على طريقة الحوار كما تقول الباحثة وكليهما عرض صناعته وفنه واحب ان يبهر صاحبه ، وان البطل عند ابي العلاء هو ابن القارح وهو ابن شهيد نفسه في رسالة التوابع ، والغفران تصور اشواق ابي العلاء والتوابع ديوان ابن شهيد . هذا كله صحيح ولكنه لا يغير من جوهر القضية شروي نقير . فالرحلة الخيالية هي سر الابداع ولو كانت المسألة مسألة حوار لقرنت بالمقامات او حديثا عن النفس لقرنت بقصائد الفخر وسيان ان تكلم ابو العلاء عن غيره او نطق ابن شهيد عن نفسه فتلك جزئيات تتداخل في اطار عام هو الرحلة المبتكرة التي اخترعها ابن شهيد . ولا ادري لماذا لا يكون ابن شهيد قد تحدث عن اشواقه واحلامه كما تحدث ابو العلاء . الا تصور التوابع والزوابع احلامه في الادب والشعر ورغبته في التفوق والاعجاز وليت شعري اي الاديبين اقرب الى الحديث عن نفسه اديب يتحدث عن لسانه هو أم اديب يتحدث عن لسان ابن القارح حتى نجعل الثاني يصور هواتف نفسه ـ ولا معارضة في ذلك ـ ونصر على ان يكون الاول بعيداً عن اشواقه مع انه باقرار الدكتورة بطل الميدان .

واذا كانت التوابع ديوان شعر ابن شهيد . أوليس

الديوان في مجموعه خلجات نفس وهمسات وجدان . ان علماء الادب المقارن يجعلون من اختصاصه ان يدرس مواطن التلاقي في الآثار الادبية ، ومظاهر التأثير والتأثر سواء تعلقت بالاصول الفنية للمذاهب الادبية او اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والاشخاص التي تعالج او تحاكى في الادب . وكانت خاصة بصور البلاء المختلفة كما تنعكس في الآثار الادبية (الادب المقارن ص ٩ ط ثالثة) .

فكل موطن للقاء بين الاثار الفنية مجال للدراسة والتحليل فالحكم بالتأثر والتأثير ، ولن نجد موطنا افسح ولا اوسع من رحلتين خياليتين قامت أولاهما في الارض السابعة وارتفعت اخراهما الى السماء العالية . ثم الا يكون هذا التناقض المعارض دليل التأثر الواضح حين يذكر الشيء بنقيضه كما يذكر بمثيله على السواء . اذا كانت الدكتورة الفاضلة في شك من ذلك فلتسأل نفسها الا يذكرها هدوء الليل بضجيج النهار ؟ تلك مسألة واضحة . ولعل ابا العلاء لو سئل عنها ما رأى حرجا في الاعتراف . واذا كان قد اغفل الحديث عن ابن شهيد حتى يحسم الخلاف فعذره انه لم يتحدث في رسالة الغفران عن اندلسي قط . وقل حديثه في غيرها عن هؤلاء .

وقد اتى الاستاذ الدكتور احمد هيكل ببعض الجديد فيما كتبه عن ترجيح صلة الغفران بالتوابع . هذا الجديد يتعلق بتحديد الزمن فقد جعله الدكتور زكي مبارك في حكم سليمان المستعين ، وقد ولي ما بين سنة ٤٠٣ الى سنة ٤٠٧ فتكون التوابع قد سبقت الغفران بعشرين عاما ، اما الدكتور هيكل فيرى ان التوابع قد سبقت الغفران بما لا يقل عن تسع سنوات فقط ، ودليله واضح شرحه حين قال ص ٤٢٢ من كتابه في الادب الاندلسي ردا على زكي مبارك :

« على ان ذلك الرأي ليس دقيقا فقد اشتملت التوابع والزوابع على نصوص اخرى يرجع تاريخها الى ما بعد هذا التاريخ . ومن ذلك قصيدة ابن شهيد التي قالها وهو في سجن الحموديين ، فالمرجح أن يكون قد قال هذه القصيدة ايام القاسم بن حمود الذي نغلب ان يكون قد سجن ابن شهيد لصلته بمنافسه الثائر عليه وهو يحيى بن حمود وقد كانت خلافة القاسم سنة ٤١٣ ، وفي الرسالة كذلك ما يؤخر زمن تأليفها عن هذا التاريخ فقد اشتملت على بعض رثاء ابن شهيد لابي عبيدة حسان بن مالك وكان هذا المرثي ضمن وزراء المستظهر سنة ٤١٤ ، وفي الرسالة أبيات تشير الى شافعية ابن حزم وقد كان شافعيا في هذه الفترة ثم تحول الى المذهب الظاهري بعد ذلك وعلى هذا يمكن ان نقول ان ابن شهيد قد اتم رسالته سنة ٤١٥ هـ » .

هذا هو الجديد الاول ، اما الجديد الثاني في كلام الدكتور هيكل ، فهو تقريره ان الرسالة لم توجه الى ابي بكر بن حزم ، كما ذكر ابن بسام ، وانما وجهت لشخص اخر يدعى ابا بكر ، فظنه صاحب الذخيرة ابا بكر بن حزم ، ودليل الدكتور ان ابا حزم مات في طاعون قرطبة سنة ٤٠١ كما ذكر اخوه في طوق الحمامة، والى هذه السنة لم يكن ابن شهيد قد كتب الرسالة ثم يرجح الدكتور هيكل انها موجهة لابي بكر الكاتب المعروف باشكمياط لانه كان ينتقد ابن شهيد ويعيبه بأخذ كلام غيره وقد رد عليه ابن شهيد معاتبا لائما وهدده وتوعده في فصل ذكره ابن بسام ص ١٩٦ جا - ١ وانا اوافق الدكتور هيكل على استنتاجه انها ليست لابي بكر بن حزم ولا اوافقه على استنتاجه انها لابي بكر اشكمياط لان ابن شهيد يقول في مطلعها عن رأي صاحبه فيه «حين لمحت صاحبك الذي تكسبته ورأيته قد اخذ بأطراف السماء فألف بين قمريها ، ونظم فرقديها ، فكلما رأى ثغرة سدها بسهاها ألى غير ذلك فقلت كيف اوتي الحكم صبيا ، وهز بجزع نخلة الكلام فاساقط عليه رطبا جنيا، اما ان به شيطانا يأتيه وليس هذا في قدرة الانس » وابو بكر المعروف باشكمياط يرى ابن شهيد لصا سارقا ولم يره قد اوتى الحكم صبيا واخذ بأطراف السماء فالف بين قمريها ونظم فرقديها ، فليبحث لنا الدكتور اذن عن ابي بكر سواه .

هذا بعض ما قاله المعاصرون ممن عثرنا على اقوالهم في صلة الغفران بالتوابع وهي صلة تقوم الدلائل على وجودها ، وتعوز البراهين القاطعة على نفيها ، ونحن مع هؤلاء المثبتين نعترف بتأثير ابن شهيد في ابي العلاء حتى يقدم الينا من الادلة الثابتة ما يقع موقع اليقين .

الفيوم - دار المعلمات — محمد رجب البيومي

قولوا له

قولوا لذاك المدعي خفف من الغلواء
قولوا له ما أنت ؟ ما دنياك ؟ فيض هباء
ما الهمس؟ ما الآهات؟ ما بالزيف سرهنائي
الحب كون وحده ، فيه معين غنائي
دعني سئمت سماع صوتك عابثا برجائي
وسئمت ظلك طاويا في مده أفيائي
والنظرة العجلى سئمت دبيبها بدمائي
ما هذه دربي ولا أصداؤها أصدائي
قولوا له قولوا لمن يرضيه عذب ندائي
ويثير من اغواره أملا بطيب لقائي
ان كان يحسب منعتي ضربا من الابطاء
فانا أحب وانما اسمو عن الدهماء

دمشق — سلافة العامري

اصـداء

اديـل الخشن

●

الشويفات ـ لبنان

●

لهاث النجوم يقرع ابواب الاكـواخ
اي ضياء مبحوح
يختـرق الارض
ويستوي في كوى عاريـة
الفـزار يتعـانـق
يتماوج مع حفيف اكفانـه
والبجـع السـاهم
ينفض مناديله البيضاء
حيث الامواج تتداخل
لتؤلف خوار احدى البقرات
وفـي مغارة الاقمطة
يسجـن طفـل ،
انـه وعد الارض الطيبة
كرجة نهـر منسـاب
يداه خفقة جناح
فـي السهـول
تمخر السنابل بذوب الجباه
وتغفو الاطواد على ذراع منقبة
وعند المغيب
تنصهر النجوم في سمرة ضارية
ويـرقـد الافـق
على حواشـي قبعـة .
الليل يزحف في مهرجان
وتفتح الاعين الزجاجية اجفانها
فتصـوب بنهـم
اشعاعاتها المسمومة .
جدران القصور تتداعى
تسجـد
في شفافية البخور العابق
وتختنق الاضواء
فـي جـدول من دمـاء

الفجـر يتعـرى ،
وتهـرب النجـوم ..
تنـام الخفافيش
تندس في اوكارها العفنة
تغفو على طنين الذباب الجائع
الحالم بالجيف المختمرة .
الخفافيش تغفو
يدوسها النهـار
يركلها بنعاله العريضـة
ويهرول مسرعـا
حيث الكـوى العارية
يرمي فيها حزمة من احلامه الفضية
ويستيقظ لهاث الاكواخ من جديد .

✡

هذا الفراغ ما لونـه ؟
كيف تتمدد جذوره في نفسها
تشلهـا ، تكومها ،
تمثالا فـي بئـر ...
حصاة في نهـر
تنزلق فوقها مياهـه
تهرب عنها موسيقاه
تجوس الرمال خطى خرساء
تكنسها الريح بتشف
يفرقها الشتاء بحقد .
من البرج السابح في الفضاء
شباكا مطروحة مترامية
ترى العالم قفصا مكورا
عيـونـه الليـل
قفصـا مكورا
اسـواره ريـاح
تحمل رماد الشمس .
في الربيع غمـام خانق
وفي الصيف ضباب كثيف .
حزمة من هشيم
فـي غـاب مهجـور
بئـر تبتلع الاضواء
تلفظها اشباحا وليالي

لهشـات ودموعـا
في حزنها الصامت
تتردد صرخات
وفـي الجبـاه
اجراس ورجع اصداء .

✡

الخيبة تغلق نفسي
فلا اصبو او اتلهـف !
برودة في جوانحي ،
فلا حـب ولا دفء ،
كنت ربيعا مداي الارض
وآمالـي الفضـاء
بكلمة ، بهمسة ، بفكرة
ذبلـت ورودي
ونثرتها الريـح
جـدار بيني وبينـك
فلا عطر يفـوح ...
أقربك واغرب بناظري عنك
تلمسنـي يـدك
فـلا ابالي او ارتعش
كدميـة متحركـة
امشي الى جانبك
والمح في عينيـك
الـف سؤال ؟؟
وعيناي باهتتان
جامدتان لا تجيبان .
انقـلاب ، ثورة صامتة ، بوار ..
عللك يا حبيبي تستفيق
عللـك تتذكر
كلمة رميتها في قلبـي
غرسـة شـوك
استعيدها في وحدتي الباردة
خنقت مواسمي وازهاري
ارددها بصمت
فلا تتحرك شفتـاي
امشـي واهتـف
بكلمات خرساء
ويئـن قلبـي
فأتجاوزه بكبرياء

كثيرا ما كان احساسه يرتجف حين تشد اذن طفل ، او يمس خده بلطمة ولو كانت سهلة او يعلو صوت لينهره بعيدا طلبا للهدوء .. وكثيرا ما كان يردد « اتركه يا ابا سمير .. اتركهم ، لا يملكون سوى اللعب » وكان يحس بالعجب وهو يرى صديقه ينهر اطفاله بعيدا في الوقت الذي لم يكن يهرع اليه الا ليرشف من عيون الصغار احلى الامنيات ، ويستشعر من مداعبتهم له آفاقا رحبة من الدعة والامل ، كان يلذ له ان يغدق عليهم الهدايا في كل المناسبات ، وكم تمنى ان يعلم صديقه ابو سمير ان هروعه اليه كثيرا كان بمثابة هروب من اشباح رهيبة تتصارع في دماغه وقلبه يحاول أن يتغلب عليها مرة بكتابة المزيد من الرسائل لزوجته التي تركها خلفه أملا الى جمع الثروة يدفعها ثمنا لطفل وطورا في مداعبة اطفال صديقه ...

كان (حامد) يعيش بعيدا في بلد تبعد آلاف الاميال عن اهله وزوجته ، عرف بالصمت بين زملائه ، كثيرا ما اركن اليه مسؤوله اكثر من غيره ، وقربه منه للخروج من بعض ازمات الشركة التي يعمل فيها وذلك بما عهد عنه من الهدوء ولانه كان يبتسم في اتزان غير ان واحدا من زملائه لم يكن يعرف عنه شيئا حتى مسؤوله كان يحثه على التنفس قليلا لحبه الكبير له .. لم يكن احد منهم يعلم ان (حامد) قد قرر الخروج من قريته ذات يوم ، بعد ان شعر ان مالا كثيرا يجب ان يحصل عليه ليتمكن من الاستمرار في البحث عن علاج يمزق حرمانه من طفل .. وكانت زوجته هي الاخرى غير ضاجرة بقرار زوجها لان شيئا ما كان يداعب احلامها ، هو عطاء زوجها ، ورحلة منتظرة الى البعيد يدفعان لها ثمنا كافيا للبحث عن امل .

ترك حامد زوجته وهو يذكر طيلة اللحظات بعيدا عنها ، ذلك الحلم الكبير الذي يموج في مآقيها تغسل الدموع عمقه دون ان تنزل ،وكلماتها التي ما برحت تتناوح في اعماقه « اذكرني يا حامد ما أجمل ان املك طفلا له سمرة عينيك وكثافة شعر حاجبيك ... » اما زوجته فقد كانت تشده اليها دائما فتمطره بشعورها عبر الاثير تحكي له عن الياسمينة التي زرعها بيده في فناء البيت وكيف انها ترويها كثيرا وتمدد الاسلاك امام اغصانها وتنصب اعمدة الخشب في كل اتجاه تميل اليه ، علها تنمو فلا تتفتح عيون طفلها الا على زهرات بيضاء عطرة ... اما قال لها حين غرسها « هذه



لطفلنا » .

وكان يحس انه في دوامة من العاطفة ، تشده الى الارض فيزداد رقة في حركاته وعمله ، ويحن الى الشوارع والازقة التي تضج بالاطفال .

غير انه شعر فجأة ان خنجرا حادا مسموما قد طعن عاطفته في كثير من العنف ، كان يستمع الى الاقوال المختلطة من حوله فتزداد حدقة عينه اتساعا ، وتتلون شفتاه بالوان متعددة في لحظة واحدة حتى الكلمات التي لم تكن لتستطيع ان



تجد لها طريقا تنفذ منه الى الافق . لقد عز عليه ان يعلق بشيء على المفاجأة التي قررت انفصاله عن زوجته في مثل لمح البصر .. انه بعيد عنها وعن بلده الذي تطرح اسلاك شائكة على ذرات ترابه لتنفرس فيه تعلن وقف الاقدام ... ومضى كهول المفاجأة وبيده المرتجفة فتح باب غرفته الوحيدة التي يعيش فيها وحيدا منذ ان فارق تراب بلده يزرع في جنباتها احلام لقائه المنتظر مع زوجته في رحلة اراد ان يجمع لها الكثير من المال ليملك طفلا يستطيع ان يداعب اغصان الياسمينة في فناء بيته .

وعلى السرير المرتب كما هي عادته ، ارخى جسده واخذ يطفيء جمرات قلبه بلفائفه .. كان الدخان يتصاعد من فمه وانفه يبدو وكأنه اسود .. ومع ان الظلمة كانت تتسرب الى الامكنة الا ان يده لم توقظ سوى تلك الشمعة ذات النور الازرق ، فلم تتمكن من تمزيق العتمة ، ولكنها فعلت ما اراد لقد هيأت له غلالات زرقاء ساح معها كثيرا وحبات العرق تلمع على انفه وجبهته ، لقد كان صامتا كالجبل حتى انه لم ينتبه الى قطه الابيض الذي كان يموء وكأنه يستفسر عن تمزق حركته واخذت عيناه تسبحان في افقه الضيق وكان كل ما يفعله انه ينفث الدخان سريعا دون لذة ... ويحك رقبته وانفه ، ويفرك حاجبيه ومن ثم يضغط براحة يده على خده الناعم الاملس .

كانت شفتاه تأكلان بعضهما ، وكأنه يعبر عما تقع عليه عينه في داخل الغرفة رغم الضوء الخافت ، لقد تضاءلت الاشياء كلها امام ناظره فلم يعد ذلك المنظر باشجاره الوارفة وخضرته ولون مياهه الزرقاء ،وتلك السماء الصافية التي تزين اعلى المشهد يثير فيه احلاما كما كان بالامس القريب ، غير ان صورة واحدة كانت تسمر عينيه طويلا

وتبعث فيه الحركة فيفرض شفتيه باسنانه ويمسح شفتيه بلسانه مرات كثيرة ، ويمط ذراعه في حركة رياضية ، ولا تتحرك عينه عنها الا لينفخ رماد سيجارته حتى يتناثر على يده وملابسه دونما شعور ، لقد كانت صورة زوجته تمسك بيدها غصنا من اغصان شجرة الخروع النامية في فناء بيته .

وبات ليلته تلك دون ان يحس انه قد تذوق طعما للراحة وتمنى كثيرا لو ان احدا يقرع بابه ليلوك معه طعم المفاجأة . وعندما تلفت حوله احس ان فراشه قد بلله العرق وكان الصباح يلقى غديرا من الضياء في كل مكان حتى قطه الابيض غرقت عيناه بأشعة الشمس المتسربة من زجاج النافذة فتمطى قليلا قبل ان يقترب من حامدواخذ يموء .

وايقن حامد انه لا يتمكن من ضبط ادراكه وقتا اخر وسرعان ما كانت يده تحزم متاعه ولم ينس قبل ان يغادر المكان ان حمل قطه معه وانطلق صوب صديقه (ابو سمير) حيث كان اطفاله يحومون حوله في انشداه لم يعهده على سحناتهم من قبل،ومد يده مصافحا اياه ومن ثم همس في اذن احد الاطفال «هذا القط لك .. اما انا .. فمسافر ». ومع انه انطوى عبر الطريق الا ان صديقه ابو سمير بقي صامتا في مكانه ينظر الى البعيد وادار رأسه هامسا « لقد سافر صديقكم .اعتن بالقط يا سمير »

كانت السيارة تغذ السير وتقطع الاتجاهات العديدة لتصل الى مكان يستطيع الركاب ان يسافروا منه فقط الى جهة واحدة نحو الغرب .

أما حامد فكان يسند رأسه بيده الملتصقة الى باب السيارة المغلق شاعرا ان ذلك الطفل المتشبث الى كتف امه وعيناه تبتلعان كل شيء سوف ينسيه عناء الرحلة .. ولم يكن ليشعربأي اسف ان نأى ادراكه عن الراكبين الاخرين اللذين كانا يحرقان سجائرهما باستمرار وصمت طويل .

وامتدت بهم الطريق الطويلة ولكن شيئا واحدا كان يهز مشاعره فقد كانت الام تحاول ان تلوم طفلها لتحد من حركته .. حتى انه قد حاول اكثر من مرة ان يقول لها « ما اقسى رحلة بدون طفل ».

وعندما غرق الطفل في نوم عميق ، هدأ روعه وجال ببصره عبر المسافات ، كان بدون شك يرى الاشياء كلها لا تختلف عما يعرفه . في ارضه القابعة نحو الغرب ، هذه حقول المشمش واشجار اللوز وذلك زهر الرمان الذي اعتاد ان يراه كثيرا ، انه يذكر الان شجرات الرمان الثلاث النامية في فناء بيته واحدة قرب السلم الحجري ، والاخرى عند الباب الخارجي ، والثالثة في الجهة الشمالية من الفناء . اما ذلك الراعي الذي يلف حول قطيعه ويرجمه بالحجارة فهو لا يختلف في شيء ابدا عن راعي قريتهم المسمى (ابو اللبن) ..

حتى تلك العصافير المتنقلة فوق الصخور احيانا وبين النباتات الصغيرة تبدو له وكأنها هاربة من وهاد قريته وجبالها .. والنسوة تلك ... كن شبيهات بنساء قريته تماما وهن يحملن على رؤوسهن حزما من نبات القمح يلتقطنه من خلف الحصادين .

كانت الاشياء كلها تشده الى الصمت والتأمل ولم يستطع ان يرفع رأسه بعد طول المسير الا بعد ان استيقظ شعوره في دروب معبدة تنتصب على جوانبها الابنية المتعددة وضجيج الناس والحركة ، وزمامير السيارات تملأ المكان .. لقد تنفس كثيرا وهو واثق ان الارض تماما واحدة وان الناس والاشياء كلها ، حتى المقابر بطولها وعرضها لم تختلف عما الفه في بلده .

ومرة واحدة افلت يده . ومد رأسه ليبصر المياه الجارية تحت الجسر حيث تشق السيارة طريقها فوقه ، واهتزت مشاعره فها هو جسر ينتصب فوق الماء ـ تماما كالجسر الذي يربط بين ضفتي بلده والذي طالما قطعه سعيدا برحلاته المتعددة مع زوجته ، في ايام الصيف الجميلة .. لم يختلف عنه في شيء الا في طوله ووفرة الماء .

وكاد يغفو في احلام بعيدة انه شوق كبير يشده الى رؤية كل الاشياء هناك ، والى وقفة صغيرة فوق ذلك الجسر الصغير .

وبدا ان رعشة تأكل جسمه وهو يتصور تلك الحراب التي نصبت على الطرف الغربي من الجسر تتحدى الوافدين . فكيف ان حجارة الجسر وحديده تطايرت لتغرق في الماء ، تاركة خلفها مزيجا من الصمت جمدته الوحشة وبللته الدموع .

وانتبه من غفلته على صوت السائق وقد نبههم الى متابعة الرحلة بعد حصولهم على شيء من الراحة في نهاية الجسر وكاد يضيق بالقرار ، لكنه ارخى يديه وجسمه ولوى راسه في ذهول .

ولم يمض اكثر من يوم ونصف اليوم حتى كانت المسافات الطويلة قد داستها عجلات السيارة الصغيرة ... وانطلق حامد يحشر جسده المنهك بين الجموع الكبيرة من الناس ، لقد كانت امارات الاكتئاب التي تعلو الجباه ، والضياع الذي يمزق جمال العيون ، هو وحده ما اعاد اليه ذكرى صديقه ابو سمير ... واطفاله الصغار حين كان الانشداد يمزق مرحهم عندما همس في آذانهم نبأ سفره ..

ولم يمض وقت كبير حتى احس برغبة جارفة الى متابعة الرحلة . فلم تشمل لعنة الرحيل زوجته غير ان شيئا واحداً استطاع ان يفهمه ، انه اصرار زوجته على عدم مغادرة القرية . لانها ارادت ان يعرف

الشاعر عقل الجر

بمناسبة نقل رفاته من البرازيل الى لبنان

بكيت عليك لا فالدمع ذل ... وذكرك مالىء الدنيا يظل
وهل أنسى حديثك وهو سحر ... حلال من حديثك لا يمل
حديث كالنسائم في العشايا ... لطيف بابتسامك يستهل
نكاتك كلها ظرف ولطف ... وأنت بها الوحيد المستقل
فراح الليل والساعات مرت ... ولاح الفجر مبتسما يطل
جلست اليك والشطآن بثت (1) ... وشع الحسن وازدهر المحل
وبين الموج والشطآن شوق ... ووجد ثم تقبيل ووصل
وفيها من نجوم الارض أفق ... بديع دونه الافق المطل
كأن الله يمطرها نجوما ... فنجم اثره نجم يهل
وابرز صخرها في البحر نهدا ... كنهد البكر لم يلثمه خل
معالم للجمال البكر تغري ... ومنظرها ـ لكل الناس يحلو
أتأسف كيف مت بدون نجل ... وكل قصيدة عصماء نجل
تفوق بها الورى نبلا وأصلا ... وشعرك كله نبل وأصل
وجسمك ما استطاع قياد نفس ... بعزتها الى العلياء تعلو ..
تركت الجسم فضلتها لتترب ... فنفسك كوكب والجسم رمل
ولم تأبه لمال الناس طرا ... صدقت لانه زور وبطل
وهذا المال يغني المرء ان لم ... يكن في نفسه كبر ونبل
فمت وأنت أغنى من غني ... فقير النفس فقر النفس ذل
ألم تك يا أخي خلا وفيا ... لفوزي بالصداقة لا تخل
خسرتك يا أود الناس عندي ... وأهل الود بين الناس قلوا ..
فنشرك كالعقود من اللآلي ... اذا انفرطت وخان العقد حبل
وشعرك كالازاهر فيه نفح ... بعيد .. وهو ممتنع وسهل
فعقلك مبدع في كل فن ... ولا عجب اذا اسمك أنت عقل

(1) شطآن الريو دي جانيرو عاصمة البرازيل

زحلة ـ لبنان

رياض معلوف

زوجها ان ذكريات كثيرة في زوايا البيت وفنائه ، وفي ازقة القرية وبين اشجارها وجبالها لا تستطيع ان تتركها .

لقد عرف من الكثيرين ان كلمة (قف) تنطلق لئيمة عبر الافق حين يستشعر الاخرون وقع اقدام تحاول الاتجاه نحو الغرب .. لكن رياح ذلك الغرب ما زالت تملأ رئته وان صفيرا متتابعا من بين اغصان شجرة الخروع النامية في فناء بيته ...

هناك تماما حيث تستيقظ زوجته مبكرة فتروى شجرة الياسمين بالماء ينطلق ليملأ قلبه ، ويقرع طبله اذنه، وعندها لا يملك اكثر من ان يسير في اتجاه واحد .. الى الغرب تماما .

كان حامد يستشعر بالروعة وهو يشق الطريق ، تؤنس وحشته نار لفافته وامتداد احلامه وفي داخل جيبه اوراق النقود الكثيرة ، عله يتمكن من أن يدفعها ثمنا لابتسامة طفل حين يتخلصان من عقم طال مكثه .

ورغم ان العتمة كانت شديدة وقاسية الا ان وقع اقدام ما زالت مستمرة ولو ان بريقا من النور يمزق ثوب الظلمة تلك لكشفت عن رجل اسمر الجبهة ، كث الحاجب ... يده تقبض على خنجر حاد واسنانه تصطك حرقة وغضبا ...

الرياض

حكم بلعاوي



عيسى الناعوري

جولة في ربوع الاندلس

بقلم عيسى الناعوري

* * *

في الرابع عشر من شهر اكتوبر ١٩٦٧ هبطت بي الطائرة في مطار مدريد في أول زيارة لي لاسبانيا ، بعد جولة قصيرة زرت فيها فيينا وزوريخ. وكانت هذه الزيارة بدعوة كنت قد تلقيتها ـ بواسطة صديقي الكريم سعادة السفير الاسباني في عمان ـ من المعهد الثقافي الاسباني العربي في مديد ، ووزارة السياحة والاعلام الاسبانية . وكانت دعوة المعهد لكي اشترك في مؤتمر الدراسات الاسبانية العربية في قرطبة ، من ١٦ الى ٢٣ اكتوبر ، ودعوة وزارة السياحة لكي أقوم بجولة في ربوع الاندلس .

اما مؤتمر قرطبة فلا يسمح المجال الان بتفصيل الحديث عنه ، ولكنني أوجز فاذكر ان هذا المؤتمر هو الحلقة السادسة من سلسلة مؤتمرات تعقد مرة في كل عام للدراسات الاسبانية العربية . وقد اشتركت هذه المرة في الدعوة اليه مدرستا الابحاث العربية في مديد وغرناطة ، والمعهد الثقافي الاسبانيالعربي ، ومعهد الدراسات الاسلامية المصري في مدريد الذي يديره الان الدكتور حسين مؤنس . وقد عهد بادارة المؤتمر هذه المرة الى المستشرق الاسباني لويس سيكو دي لوثينا ، وبسكرتيريته الى زميله منويل أوكانيا خيمينث . وكان من أهم أسباب عقده في قرطبة اقامة تمثال للفيلسوف العربي الاندلسي ابن رشد هناك . ولهذا جمع المؤتمر بين هدفين : فكان حلقة في سلسلة المؤتمرات الاسبانية العربية ، وكان كذلك تكريما لابن رشد . وقد اقيمت حفلة ازاحة الستار عن التمثال في آخر يوم من المؤتمر برئاسة رئيس بلدية قرطبة . واشترك في هذا المؤتمر عدد كبير من المستشرقين : القسم الاكبر منهم من الاسبان ، وبينهم انكليز ، وألمان ، وفرنسيون ، وايطاليون . وكذلك اشترك فيه عدد من الباحثين العرب ، هم : الدكتور حسين مؤنس (مصر) سليمان مصطفى زبيس (تونس) عبدالله كنون (المغرب) خالد الصوفي (سوريا) محمد بالروين (ليبيا) أبه ولد أن (موريتانيا) وصاحب هذه الكلمة ، عن الاردن . وكانت المحاضرات تلقى يوميا بمعدل أربع محاضرات أو خمس . وأغلب المحاضرات كانت بالاسبانية ، واربع منها بالعربية ، وواحدة بالايطالية ، وثلاث بالفرنسية . واستغرق المؤتمر ثمانية أيام .

بسبب هذا المؤتمر اضطررت الى قضاء ثمانية أيام كاملة في قرطبة . وقد أتيح لي ولسائر الوفود ان نتجول في كل مكان من المدينة، وأن نزور الآثار العربية في داخلها ، وكذلك أطلال مدينة الزهراء التي بناها المنصور على بضعة كيلو مترات منها في سفح جبل العروس .

مدينة قرطبة اليوم تضم مئتي الف نسمة ، وقسم كبير من المدينة عصري العمران وقسم آخر احياء قديمة أشبه بالاحياء القديمة في بلدان المغرب العربي . الشوارع في الاول عريضة ، وفيه ساحات متعددة واسعة ، ومتاجر عصرية تغص بمختلف انواع البضائع ، ومقاه ومطاعم حديثة . اما القسم الثاني فيتالف من بيوت صغيرة متراصة ، تتسرب بينها أزقة ضيقة متعرجة قد يبلغ من ضيق بعضها ان لا يتسع لسير اكثر من شخص واحد . غير ان الجمال في هذه البيوت الصغيرة الشرقية الطراز يزري بالقصور والعمارات الضخمة الحديثة . وهذه البيوت الصغيرة في الاحياء القديمة مطروشة كلها من الخارج بالشيد ، فهي بيضاء ناصعة من الخارج ، ولكل منها باب يفضي الى ردهة صغيرة مزينة جدرانها ، الى ارتفاع متر او أكثر عن الارض ، بالخزف الجميل ذي النقوش العربية الطراز . ثم يلي الردهة الصغيرة باب آخر في حاجز من الخشب يفضي بدوره الى صحن الدار الذي يزدهي دائما بحديقة جميلة يانعة . وكثيرا ما يكون في وسطها نافورة وبركة صغيرة . وتقوم غرف الدار كلها حول الحديقة . وقد تتالف الدار من طابقين ، تطل نوافذ غرف الطابق الثاني منهما كلها على الحديقة ، بينما تتعربش النباتات المتسلقة الخضراء على سائر الجدران الى أعلى المنزل .

وحيثما التفت المرء في قرطبة وجد الآثار العربية أمامه تشير الى المدينة التي كانت يوما عاصمة الخلافة الاندلسية والعلم والحضارة ، حتى كانت ثورة البربر في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي ـ الخامس الهجري ـ حين قضوا على الخلافة فيها ، ودمروا قصورها ، وأشاعوا فيها الخراب ، وبعثروا كنوزها العلمية في كل مكان ، وبذلك دقوا أول اسفين في عروبة الاندلس مما آذن بقرب زوال العهد العربي هناك بعد مدة غير طويلة ، فقد سقطت قرطبة قبل منتصف القرن الثالث عشر عام ١٢٣٦ ليتوالى بعدها سقوط المدن والممالك العربية في الاندلس واحدة تلو الاخرى ، وآخرها مملكة غرناطة التي سقطت في أواخر القرن الخامس عشر عام ١٤٩٢ وخرج منها آخر ملوك العرب الاندلسيين، أبو عبد الله الصغير ، باكيا ، وصوت أمه يتردد في أعماق نفسه قائلا :

ابك مثل النساء ملكا مضاعا   لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولست أريد في هذا المجال الضيق ان أنبش التاريخ ـ ولست من أهله على كل حال ـ ولكنني أروي انطباعاتي الخاصة عما رأيته في جولتي القصيرة في قرطبة أولا ، ثم في بعض مدن الاندلس الاخرى . وأترك لمن شاء منكم ان يدرس التاريخ في مظانه ، وان كنت أعلم أن قراءة الكتب وحدها لا تغني شيئا عن رؤية الآثار المجيدة الباقية الى اليوم كأنها من صنع الجن لا من صنع البشر .

اهم الآثار الباقية الى اليوم في قرطبة هو المسجد الجامع .

قد يقرأ المرء عن مسجد قرطبة هذا ، وقد يسمع حديث من زاروه ورأوا جلاله وروعته بأعينهم ، ثم يزوق له الخيال صورة لا يحلم بها الخيال نفسه ، حتى اذا ذهب بنفسه الى قرطبة ، ووصل الى باب

(*) محاضرة القيت في المعهد الفرنسي في عمان بتاريخ ٢٨ ـ ١١ ـ ١٩٦٧ بدعوة من نادي هواة الفنون .

الجامع ، أخذت صورة الخيال تتضاءل شيئا فشيئا ليحل محلها واقع لم يصل الخيال الى ما يقاربه .

يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه النفيس (رحلة الاندلس) : « مسجد قرطبة الجامع هو ، دون شك ، أضخم عمل معماري قام به العرب في الشرق او الغرب على السواء ، فان مساحة الصحن المسقوف ٤٨٦٨ مترا مربعا ... فاذا أضفنا الى ذلك الفناء غير المسقوف ـ وهو بقية صحن الجامع يحيط بها السور ـ كانت مساحته ١٢١٨٩ مترا مربعا ... وعدد الاعمدة الباقية الى اليوم يزيد على ١٢٠٠ سارية . ومحراب هذا المسجد اروع محاريب الجوامع الاثرية الباقية الى اليوم. والحلول الهندسية التي وفق اليها المعماري الاول الذي وضع تصميم هذا الجامع ، والابتكارات المعمارية والزخرفية التي وصل اليها هو ومن جاؤوا بعده ، تقرر ، دون أدنى شك ، ان العرب كانوا أعظم مهندسي الدنيا حتى مطالع العصر الحديث . وهذه العبقرية الهندسية تتجلى اذا تأملت كيف حمل المهندس سقفا ارتفاعه تسعة أمتار على عمد رفيعة لا يزيد قطر الواحد منها على خمسة وعشرين سنتيمترا » (١)

ويضيف الدكتور مؤنس قائلا : « وانصع دليل على عبقرية هذا الابتكار أنه لم يتكرر . فمن المعروف ان المعماريين ينقل بعضهم عن بعض : اذا ابتكر واحد منهم شيئا في الشرق نقله الاخرون عنه في سلسلة طويلة حتى يصل الى أقصى الغرب ... الا هذا الابتكار ، فهو فريد في نوعه على طول التاريخ ، فريد وحيد كالجامع نفسه » (٢)

أما كم استغرق بناء هذا المسجد ؟

الواقع أنه لم يكن مسجدا واحدا ، بل ثلاثة مساجد ، تعاقب على توسيعها خلفاء بني امية واحدا بعد الاخر ، وهم : عبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن بن الحكم المعروف بعبد الرحمن الاوسط ، والحكم المستنصر ، ثامن الامراء الامويين في الاندلس . يقول الدكتور حسين مؤنس : « ان أول حجر وضع في المسجد كان سنة ٧٨٠ ميلادية ، وآخر حجر وضع فيه كان سنة ١٠٠٠ ميلادية » (٣) أي ان بناء هذا المسجد استغرق مئتين وعشرين سنة .

فهذا المسجد اذن هو أكبر مسجد اسلامي في الدنيا كلها .

واذا كان الدكتور مؤنس يقول ان الاعمدة فيه اليوم ألف ومئتان ، فالواقع ان العدد كان أكبر من ذلك ، الا ان نحو مئة عمود قد أخذت منه واستعملت في أماكن اخرى بعد زوال الحكم العربي . كما ان الجامع نفسه قد أصبح الان يدعى (المسجد الكاتدرائية ـ لا ميثكيتا كاتدرال) واضيف الى مئذنته التي تنتصب جبارة شامخة عند البوابة الخارجية ، ملاصقة للسور ، برج آخر للاجراس . وكذلك وضعت بين أعمدة المسجد هياكل وصور دينية مسيحية عديدة ، وكذلك وضعت بعض الصور فوق بعض الاقواس . ولكن هذه كلها تكاد لا تظهر بين تلك الغابة الهائلة من الاعمدة والاقواس التي يذهل العقل عن احصائها .

ويحتار الداخل الى المسجد الى أين يلقي ببصره : ألى الاعمدة الرخامية الرفيعة التي تنتصب في كل جهة في داخل المسجد صفوفا طويلة متتابعة في هندسة عجيبة ، وهي تحمل فوقها التيجان المركوبة باعمدة أخرى لكي تحمل القوسين ، بين كل عمودين ، أحدهما فوق الآخر ، ام ينظر الى السقوف والقباب الخشبية ذات النقوش والزخارف التي تخلب اللب ، ام يقف مبهوتا امام المحراب الذي صب فيه المزخرف والمعماري والخطاط عبقرية معجزة لا مثيل لها ؟ ومما يزيد في روعة الاقواس المزدوجة المديدة تعاقب اللونين الابيض والاحمر فيها ، وليسا من الدهان العادي ، بل من الحجارة والطوب الاحمر تتعاقب في تناسق مدهش ، مما جعل الاقواس تحتفظ بلونيها الى اليوم ، لم تبهت ولم تتأثر بتعاقب القرون .

وأمام المسجد ساحة واسعة تدعى « بهو النارنج » او البرتقال ، وهي ملأى بأشجار البرتقال الى اليوم . وتدعى البوابة التي الى جانب المئذنة في سور الجامع « بوابة الغفران » .

عدا هذا الجامع العربي العظيم هناك السور الذي ما يزال قائما الى اليوم ، وكان في الاصل يحيط بالمدينة لحمايتها من الاعداء ، ولكنه الان أصبح داخل الاحياء القديمة من المدينة . وعلى مقربة منه يقوم قصر الملكين المسيحيين (بالاثيو دي‌لوس رييس كريستيانوس) وهو يقوم في مكان قصر عربي يطل على نهر الوادي الكبير وقنطرته الطويلة الجميلة التي كانت في العهد العربي تدعى « قنطرة الوادي » ، وكانت متنزها كبيرا . ومن خلف القنطرة تقوم قلعة الحرة ، ويدعونها بالاسبانية (كالاهورة) .

وعلى مسافة خمسة كيلو مترات من قرطبة تقوم مدينة الزهراء ، ويدعوها الاسبان اليوم « مدينا ثارا » . وهي اليوم اطلال دارسة تعكف وزارة الآثار على نبشها وترميمها . وقد أعيد بناء قسم صغير منها هو قاعة الاستقبال والعرش ، وأعيدت الى هذا القسم أعمدته الشبيهة باعمدة المسجد الجامع ، كما أعيد الصاق الكثير من زخارفه ونقوشه الرائعة المحفورة بالجبس . وما يزال العمل جاريا بهمة ونشاط لترميم بقية اجزاء القصر وما حوله من البيوت والثكنات . وقد صفت على الارض الفسيحة قطع الجبس التي كانت تزين الجدران والسقوف في تلك المدينة ابان عزها ، لكي تعاد الى أماكنها بعد الترميم . وليس المهم اعادة البناء ، ولكن المهم جدا اعادة النقوش والزخارف الى أماكنها ، وبالشكل الذي كانت عليه في الاصل .

اما نهر الوادي الكبير فانه عند قرطبة عريض ، ولكنه ضحل المياه جدا . وكانت تقوم فيه النواعير ، بين القصر وقلعة الحرة ، وما يزال القليل جدا منها قائما الى اليوم أثرا من الآثار . أما في اشبيلية فانه نهر ملاحي كبير حقا ، تسير فيه السفن التي تحمل ألفي طن وما دون ذلك .

تعتز مدينة قرطبة ـ ومن حقها ان تعتز ـ بانها اطلعت أكبر عدد من شعراء العرب في الاندلس ، وعلمائهم ، وفلاسفتهم : فهي وطن زرياب ، وابن حزم ، وابن مسرة ، والغزال ، وابن شهيد ، وابن زيدون ، وابن عبد ربه ، وغيرهم من أهل العلم والادب والفلسفة . وقد أقيم في المدينة في الاعوام الاخيرة ثلاثة تماثيل : لابن حزم ، وابن ميمون ، واخيرا لابن رشد . أما تمثال ابن ميمون فقد أقيم في وسط ما كان يدعى بالحي اليهودي في المدينة القديمة على مقربة من الكنيس اليهودي القديم ، ذي النقوش والزخارف العربية الجميلة الباقية الى اليوم . وليس في ذلك الحي اليوم ، ولا في قرطبة كلها ، يهود ، ولكن الحي ما يزال يدعى باسم الحي اليهودي (لا خوديريا) .

يقول كبير المستشرقين الاسبان الاحياء ، اميليو غارثيا غوميث ، في عهد ازدهار قرطبة : « كانت قرطبة بلدا نصف عربي : يتحدث اهله العربية وعجمية اهل الاندلس ، ويختلط فيه رنين الاجراس بأذان المؤذن ... وتجلى اختلاط الناس بعضها ببعض ، وتجاور الديانات بعضها لبعض ، عن جو سمح ، جميل ، انساني ، شفاف » (٤) .

* * *

انتهى مؤتمر قرطبة بعد ظهر الثالث والعشرين من أكتوبر . ومنذ صباح الرابع والعشرين منه اصبحت في ضيافة وزارة السياحة والاعلام . فوضعت الوزارة تحت تصرفي سيارة خاصة لكي اقوم بزيارة بعض مدن الاندلس الاخرى . فانتقلت من قرطبة الى غرناطة في طريق استغرقت اكثر من ثلاث ساعات .

وقبل ان أتحدث عن غرناطة وآثارها العربية أذكر انني قبل مغادرتي عمان كنت قد علمت من صديقي سكرتير السفارة الاسبانية ان في مدينة الحمراء نفسها استراحة سياسية جميلة اسمها (بارادور دي سان فرانسيسكو) تجعل المرء فيها يشعر بجو الحمراء . وحين وصلت الى مدريد بعدئذ ، واتفقت مع وزارة السياحة والاعلام على برنامج جولتي في الاندلس ، طلبت ان تحجز لي غرفة في تلك الاستراحة لكي

أعيش يومين في قلب التاريخ العربي . وفعلا نزلت في تلك الاستراحة الجميلة التي كانت من قبل جزءا من قصور الحمراء . ثم تحولت الى فندق سياحي من أجمل الفنادق ، ولا سيما بالحدائق الجميلة التي تتربع على كتف قصر الحمراء مباشرة ، وتقابل جنة العريف على الجهة الاخرى .

اخترقت بي السيارة شوارع غرناطة الجميلة ، ومرت من ساحة الملكين فرناندو وايزابيلا الواسعة الجميلة ، التي ينتصب فيها تمثالا الملكين على قاعدة عالية ، وامامهما كريستوفر كولومبوس يستأذنهما في السفر لاكتشاف العالم الجديد . وبهذه المناسبة اذكر ان فرناندو وايزابيلا مدفونان ، ومعهما ابنتهما خوانا وزوجها فيليب الجميل ، في كاتدرائية المدينة التي أقيمت على انقاض الجامع القديم هناك بعد هدمه .

ثم أخذت السيارة تصعد في طريق ضيق حتى وصلت الى بوابة عربية في سور سميك مرتفع ، ودخلت تحت قوس شاهق العلو من الاشجار المتعانقة يحجب ضوء الشمس ، وراحت تدور في العطفات المتعرجة وسط الاشجار الكثيفة ، وأنا ماخوذ بهذا الجمال الاخضر الساحر ، حتى وقفت بي عند مدخل باراذور سان فرانسيسكو على قمة التل ، ومن خلف المدخل تتناثر احواض الزهر الجميلة ، ونوافير المياه المتدفقة .

وأحسست انني قد دخلت في دنيا هي اقرب الى الاسطورة منها الى الواقع ، فكأن التاريخ الذي سأراه حيا امامي بعد لحظات لم يكن تاريخا حقيقيا من صنع البشر ، بل كونته الخرافة والمعجزة والسحر .

عند نزولي من السيارة في مدخل الباراذور تقدم شاب كان يقف هناك ينتظر ، وسأل السائق من خلفي بصوت خافت قائلا : « هل تعرف سيدة عربية من الاردن اسمها عيسى الناعوري ؟ » فضحكت واستدرت نحوه ، وقلت له بالانكليزية : « أنا عيسى الناعوري ، ولكني آسف لانني خيبت ظنك ، فلعلك كنت تنتظر ان تكون دليلا لسيدة جميلة ، ولكنك ترى الان امامك « خنشورا » مثلك بدلا من السيدة الحسناء ! » فاعتذر الرجل خجلا ، ومد الي كتابا في يده من دائرة السياحة في المدينة تكلفه فيه بمرافقة « السيدة عيسى الناعوري » خلال اقامتها في غرناطة . فقلت له : انا اعرف ان الاسماء التي تنتهي بحرف A هي في الغالب مؤنثة بالاسبانية والايطالية ، ولذلك التبس الامر على المسؤولين هنا بين « سنيور » و « سنيورا » .

ولم اتأخر في الفندق الا ريثما وضعت حقيبتي في الغرفة المخصصة لي ، ثم خرجت حالا مع الدليل لأرى قصر الحمراء الذي كنت في شوق شديد الى رؤيته . ولا يبعد مدخل القصر عن مدخل الفندق اكثر من ثلاثين او اربعين مترا .

كان المطر ينزل خفيفا حينئذ ، والسماء متلبدة بالغيوم . وكان هذا مزعجا لانه لا يسمح لي بالتقاط الصور .

وقادني الدليل في متاهات قصر الحمراء الساحرة مبتدئا بقاعة المشور ذات السقف الخشبي المنخفض ، والنقوش والزخارف البديعة، وقد دعيت هذه القاعة بقاعة المشور لانها كانت مكان اجتماع السلطان بوزرائه للمشورة والنظر في شؤون الدولة .

ثم اخذ الدليل يعبر بي الغرف والقاعات والاروقة والابهاء ، وأنا لا اصدق عيني ، وكلما شاهدت سقفا ، او قبة ، او مجموعة اعمدة ، ورأيت ما فيها من رهافة الفن ، ودقة الصناعة ، وروعة الهندسة ، وجمال النقوش والخطوط ، والآيات ، والابيات الشعرية التي ترصع الجدران والسقوف والاعمدة من الداخل والخارج استبدت بي الدهشة، ولم املك ان اهتف قائلا : « مستحيل ! لا يمكن تصديق هذا كله » !

قاعة السفراء ، غرف النوم ، قاعات الجلوس ، بهو الاسود ، قاعة الاختين ، قاعة بني السراج ، الحمامات ، الممرات ، كل هذه وسواها مرصعة بنقوش عجيبة لا مكان لها حتى في اخيلة اعظم الشعراء.

عبارة « ولا غالب الا الله » تملأ سائر الجدران في أكثر من زنار واحد على كل جدار ، وتقوم اطارا ثلاثي الزوايا لكل باب ، ولكل نافذة ، ولكل قوس ، وعلى تاج كل عمود ، بخطوط متشابهة كل التشابه ، واحيانا بخطوط مختلفة بين الكوفي ، والديواني ، والثلث وغيرها ، والآيات الكريمة المتعددة ، وابيات الشعر العديدة على كل جدار ، وعلى الابواب الخشبية ، وعبارات « القدرة لله » و « العزة لله » التي تملأ الجدران في شبه اطارات رباعية الزوايا ، وكذلك عبارات « عز لمولانا السلطان أبي عبدالله آمير المسلمين » ، « والعز لمولانا ابي الحجاج » ، هذه وسواها من الزخارف المنقوشة في الجبس الملصق على الجدران ، تجعل من الفن العربي شيئا فريدا في الدنيا .

وتبلغ الدهشة مداها حين ينظر المرء الى القباب التي تتدلى منها الزخارف الجبسية البديعة الالوان كانها ثريات رائعة الجمال . وعلى ارض الغرفة تحت ثريات القباب المدهشة تقوم برك الماء الصغيرة المستديرة ، في وسط كل منها نافورة ، والماء ينساب من البرك في قنوات رفيعة ليصب في بركة اكبر منها في وسط البهو الخارجي ، ثم تنساب في قنوات اخرى الى كل الجهات .

وتقف في القاعتين الكبيرتين على جانبي بهو الاسود ، وتنظر لتتأمل انعكاس ثريات السقوف في الماء ، فاذا أمامك نوع من الجواهر النادرة العجيبة .

سحر ، بل أكثر من السحر !

وعلى الرغم من آنني لم آكتف بالزيارة الاولى التي لم اصدق فيها عيني ، بل عدت في اليوم التالي الى القصر من جديد ، وتجولت في سائر غرفه وآبهائه وممراته وحدائقه ، فقد ظل السحر مستوليا علي وعلى احساسي كله .

أين القصور العظيمة التي شاهدتها في كل رحلاتي السابقة في الغرب والشرق ، من الفاتيكان الى القصر الشتوي في لينغراد ، وفي سمرقند ؟ كلها تضاءلت امام قصر الحمراء ، واصبحت في نظري الاعيب أقزام يحاولون ان يكونوا عمالقة !

البساطة ... البساطة العجيبة في دقة النقش ، ورهافة الصناعة ... تلك هي الروعة ، وتلك هي الاعجوبة ... كل شيء بعيد جدا عن الضخامة وكثرة الترصيع بالذهب كما في قصور الشرق والغرب العظمى . « بساطة ورهافة ودقة » ، هذا كل شيء ، ولكن هذا هو الجمال الذي لا مثيل له .

حين عدت في اليوم الثاني لزيارة القصر كانت معي الاديبة السورية السيدة سلمى حفار الكزبري ، وكانت ضيفة مثلي على وزارة السياحة ، ونازلة في البارذور عينه . وكانت من قبل قد زارت غرناطة مرتين حين كان زوجها سفيرا لسوريا في اسبانيا . ومع ذلك لم تكن دهشتها اقل من دهشتي ونحن نتامل زخارف القصر ، ونقوشه ، وهندسته ، وتنسيق اعمدته ، وترتيب أبهائه وقاعاته .

هذا القصر العجيب الساحر كان يوما مصدر فتنة للكاتب الاميركي واشنطن ايرفنغ . كان ايرفنغ سفيرا لبلاده في فرنسا قبل عام ١٨٥٠، وزار غرناطة مرة مع صديق له من السفارة الروسية في فرنسا . وحين وصل الى قصر الحمراء هجر السفارة والحياة الدبلوماسية ، وقام هناك بقية عمره ليعيش في جو التاريخ الاسطوري ، ويكتب الاقاصيص والحكايات عن الحمراء بروح الف ليلة وليلة . وفي قصر الحمراء كتب مجموعة حكاياته المعروفة باسم Tales Of The Alhambra أي « حكايات الحمراء » . وكان هذا الكتاب وسواه مما كتبه ايرفنغ في غرناطة من اهم الوسائل التي جعلت السياح الاميركيين يتقاطرون على غرناطة ، واسبانية كلها ، منذ منتصف القرن الماضي الى اليوم . جو الاسطورة وألف ليلة وليلة في قصور الحمراء كان منطلقا لخيالات الغربيين ، انساهم التاريخ واصحابه ، لان الغرب لا يستطيع ان ينظر الى العرب الا من خلال منظار شهرزاد وجو

الحريم . وهكذا اصبح واشنطن ايرفنغ مقترنا اسمه بغرناطة والحمراء، واصبح يحتل مكانة بارزة من متاحف غرناطة الى اليوم .

من قصر الحمراء مضينا الى حدائق القصر المترامية ، وخمائله الجميلة . ووقفنا طويلا عند خميلة البرطل والبركة الجميلة التي امامها تعكس جمالها في قلب الماء ، ثم في داخل المسجد الصغير القائم بين ابراج السور ، والذي لا يقل جمالا في زخرفته ونقوشه عن بقية القصر .

وغادرنا قصر الحمراء وحدائقه لنصعد الى التل المقابل ، حيث تترامى جنة العريف متصاعدة من الوادي الى ما قبل قمة التل بقليل.

الطريق كلها ، من قاع التل الى القمة ، تمضي في وسط غابات رائعة من الاشجار ، مثل مدخل الحمراء من اول الطريق . ويدهش المرء لروعة التنسيق في احواض الزهر ، وترتيب الاشجار ، والتفنن المبدع في تزويق الجنة بفنون من الهندسة الزراعية ، وصنع الاقواس، والابواب والممرات الطويلة من شجر السرو الملزوز ، وتنوع البرك الجميلة ، بين مستطيلة ، ومربعة ، ومستديرة . وترتاح النفس بشكل عجيب حين يقف المرء عند البركة المستطيلة في ((بهو الساقية)) بين بناءين رائعي النقوش والزخارف على طرفيها ، واشجار السرو تنتصب على جانبيها في صفين طويلين ، وتحت اقدام الاشجار اصناف من الزهر على طول جانبي البركة ، والنوافير تقذف الماء الى فوق فينحني فوق البركة اقواسا من الفضة الناصعة على الجانبين . وفي كل مكان من مدرجات الجنة الساحرة تتدفق المياه قنوات رفيعة او عريضة منحدرة من اعلى التل ، ومنسابة في تعاريج هندسية وسط احواض الزهر . وهنا وهناك تتناثر المقاعد الطويلة تحت اقواس السرو ، او في ظلال الخمائل الخضراء ليستريح عليها المتفرجون ، او العشاق الذين يتزوون هنا وهناك لخلوات الهوى .

جنة العريف هذه لم ار في حياتي حديقة مثلها ، او قريبة الشبه بها . انها استراحة لمن يريد ان يعيش للشعر او للحب او للجمال ، وهي توحي بذلك كله .

لقد كانت المدة التي قضيتها في غرناطة اقل من القليل ، كانت يومين فقط ، فلم استطع ان اشبع من رؤية قصر الحمراء ولا من الاستمتاع بجنة العريف . لكي يشبع المرء من الحمراء وجنة العريف يجب ان يقضي فيهما اسابيع ، لكي يعرف كيف يحس بروعة الفن ولذة الجمال .

الى جانب جنة العريف يقوم تل اخر يدعونه (الجبل المقدس ـ مونتي ساكرو) Monte Sacro يقيم عليه النور يبيعون الاواني النحاسية الحمراء والفقاشات Castanietas التي تستخدم في رقص الفلامنجو ، وفي غرف مستطيلة معقودة السقوف يجلس السياح على كراسي صغيرة على جانبي الغرفة ليتفرجوا على رقص الفلامنجو.

وعلى مقربة من غرناطة ترتفع جبال الثلج (سيرا نيفادا) التي تنحدر منها المياه غزيرة الى غرناطة ، وهاماتها معممة طوال العام بالثلوج الناصعة . ولقد حاولت مع السيدة سلمى ان نصل الى القمة الثلجية ، ولكن البرد الشديد ارغمنا على العودة من منتصف الطريق.

* * *

في اليوم الثالث ودعنا غرناطة ، سلمى وانا ، وفي نفس كل منا أسف شديد لقصر المدة التي قضيناها هناك . ومضينا الى مالقة ، حيث نزلنا في استراحة سياحية على مقربة من المدينة .

الاستراحة تدعى (الاستراحة الوطنية للعبة الجولف) وهي في الواقع فندق فخم جميل يتألف من جناحين متقابلين ، بينهما ساحة خضراء فسيحة جدا في وسطها بركة كبيرة للسباحة ، وتترامى خلف الاستراحة ارض واسعة مفروشة بالعشب ليمارس عليها نزلاء الفندق لعبة الجولف . وفي هذا الفندق السياحي الجميل الفخم قضينا يومين اخرين ننطلق منه في الصباح الى الجهات القريبة ونعود اليه في المساء . وعلى مقربة من الفندق مدينتان سياحيتان هما : مالقة ، وتوري مولينوس . واذا كانت مالقة في الماضي من اهم الموانيء العربية في الاندلس ، وما تزال قلعتها العربية قائمة تتحدى الزمان ، بابراجها واسوارها العالية المطلة على المدينة من اعلى التل الذي يقوم خلفها ، فان توري مولينوس من اهم المدن السياحية في الوقت الحاضر .

وحين يتجول فيها المرء لا يرى من اهلها نصف العدد الذي يراه من السياح الذين تعج بهم في النهار والليل . وهي في النهار اكثر هدوءا منها في الليل ، فالحياة الصاخبة اللاهية ، العنيفة في لهوها وصخبها ، تبدأ بعد الساعة العاشرة ليلا وتستمر حتى الصباح .

وكنت قد زرت توري مولينوس هذه مع جماعة من الاصدقاء في ايام مؤتمر قرطبة : وصلنا اليها بالسيارة الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، وغادرناها من جديد الى قرطبة الساعة الثالثة صباحا وهي ما تزال في عنفوان صخبها ولهوها ، بين الجاز ، وهستيريا الرقص : حاناتها وملاهيها وشوارعها غاصة بالسياح ، وكثيرون منهم من ((الخنافس)) وذوات الميني جوب الذي يكاد لا ينزل عن اعلى الفخذين، وكلهم من السياح والغرباء من سائر الشعوب والاجناس .

الساحل هناك يدعونه ((ساحل الشمس ـ كوستا دل صول)) ، والمدن على طول الساحل تعج دائما بالسياح القادمين للاستمتاع بالشمس والدفء والجمال .

من فندق الجولف انطلقنا لزيارة مغارة ((نيرخا)) ، الشبيهة بمغارة جعيتا ومغارة قاديشا في لبنان من حيث المناظر الداخلية الرائعة المتدلية في اشكال عجيبة . هذه المغارة اقل جمالا من مغارتي جعيتا وقاديشا لان لا ماء فيها ، ولكنها اكثر منهما رهبة بكثرة ما فيها من المغاوز والكهوف ، والاشكال الحجرية العجيبة . ولا يطيق المرء البقاء فيها طويلا لشدة الرطوبة الباردة في داخلها . وهي تمتاز عن المغارتين اللبنانيتين بان جفافها من الداخل يسمح باقامة الحفلات الموسيقية والراقصة في داخلها . وكانوا فعلا يعدونها لذلك عند زيارتنا لها .

وزرنا كذلك قرية ميخاس . وتشتهر هذه القرية الممتدة في سفح الجبل في وسط غابة رائعة من شجر الصنوبر ، بنوع من وسائل السياحة فريد ، هو ((الحمار التكسي)) Taxi- Burro . فهناك موقف خاص للعربات السياحية الصغيرة التي تجرها الحمير المزينة للسياحة .

ثم زرنا كذلك مدينة ((ماربيا)) او البحر الجميل ، وهي ايضا من المدن السياحية الكبيرة الجميلة ، وتعج بالسياح مثل توري مولينوس . والاستعدادات السياحية في ساحل الشمس متوافرة جدا : من الفنادق الضخمة ، الى برك السباحة ، الى البلاجات العامرة ، والملاهي والمنتزهات التي يقضي فيها السائح اوقاتا ممتعة تحت اشعة الشمس الساطعة الدافئة .

في منطقة ساحل الشمس هذه وددت لو امكن ان ازور جبل طارق وهو لا يبعد كثيرا . غير ان الوقت المحدد لدي لم يسمح لي بذلك .

تلك القلعة الجبارة المسيطرة على المعبر المائي الكبير الاهمية ، والتي ما تزال تحمل اسم القائد العربي الجبار ((طارق بن زياد)) ، رغم تحريف الاسم في اللغات الغربية الى Gibraltar جديرة بأن يقف العربي عندها ليستعيد في ذهنه صورة العزيمة المعجزة التي استطاعت ان تتخطى القلعة قبل اكثر من اثني عشر قرنا من الزمان . ففي هذه الذكرى ما يبعث على الامل في غد لا يقل زهوا عن الامس البعيد ، وفي ((طارق)) عربي جديد لا يكون اقل عزيمة من ابن زياد.

وعلى ذكر جبل طارق ، اذكر هنا ما حدثني به بعض الاخوان العرب في مدريد عن مهزلة الاستفتاء البريطاني الاخير هناك . لقد ذكروا لي ان الذين اشتركوا في ذلك الاستفتاء لم يكونوا من الاسبان،

بل كانوا من الهنود والمالطيين وابناء الكومونولث الذين يعملون في خدمة البريطانيين في المستعمرة . وهؤلاء من مصلحتهم ان يبقى البريطانيون هناك لتظل لهم اعمالهم . وهكذا جاءت النتيجة التي اعلنتها بريطانيا زاعمة ان الاجماع كان تاما على بقاء جبل طارق في ايدي البريطانيين .

ألعوبة اخرى ... واحدة من الاف الالاعيب التي خبرها الناس عن سياسة الانكليز !

* * *

في اليوم الثالث غادرت ملقة الى اشبيلية .

المدينة كبيرة واسعة ، يشطرها النهر الكبير ، او الوادي الكبير ، من وسطها . وهو نهر — كما يذكر القشقندي — كان منتجع العشاق واهل الطرب : اللهو والشراب على ضفتيه مباحان ، « لا ناه عن ذلك ولا رقيب » ، ولكنه اليوم نهر ملاحي تمخر فيه السفن التجارية ذاهبة آئبة ، ومن حوله العمارات الحديثة والقديمة ، والمقاهي . ولكن الاشجار قليلة جدا على جانبيه ، ولم يعد شاطئاه ملتقى العشاق واهل الطرب كما كانا في القديم . والعشاق اليوم لم يعودوا في حاجة — في الغرب كله — الى شاطىء نهر او الى خميلة ليلتقوا فيهما ، فكل مكان ، حتى الشوارع ، والمتنزهات العامة ، وحتى الحافلات وسيارات التكسي ، هي اماكن للهوى واهله ، « لا ناه عن ذلك ولا رقيب » !

الاثار العربية في اشبيلية عديدة : المآذن والابراج وحدها اكثر من نصف دزينة : مئذنة الخيرالدا — او الدوارة — ومئذنة عبد العزيز بن موسى بن نصير ، ومئذنة كنيسة القديسة كاتالينا ، وبرج الذهب ، وغيرها . وقد ذكرت مئذنة كاتالينا لان الكنيسة كانت في الاصل جامعا ، ثم تحولَ الجامع الى كنيسة ، مع تغيير بسيط في هندستها ، وبقيت ملامح الجامع على حالها ، كما بقيت المئذنة الى جانب الكنيسة ، كما كانت من قبل ، لتؤكد ان اصل الكنيسة جامع.

وكاتدرائية اشبيلية الكبرى : ثالثة اكبر كنائس العالم ، تقوم على مكان مسجد كان مثيلا لجامع قرطبة ، ثم تهدم الجامع وقامت الكاتدرائية مكانه ، وبقي منه ساحة النارنج الفسيحة وفي وسطها حوض الوضوء ، وفي احد جوانبها ، لصق جدار الكنيسة ، جزء من جدار الجامع القديم . ولكن اهم اثر باق من الجامع هو مئذنته المربعة الهائلة ، على طريقة المذهب المالكي . خمسة وسبعون مترا ترتفع شامخة في الفضاء لصق الكنيسة ، ثم اضيف اليها برج للاجراس فبلغ ارتفاعها تسعين مترا . ويصعد اليها في طريق عريضة من الداخل تتسع لاربعة اشخاص او خمسة ، تدور متصاعدة الى قمتها . والطريق مرصوفة بالطوب الاحمر الرفيع . وفي نهاية كل دورة شرفات تطل على مختلف جوانب المدينة ، حتى اذا وصل المرء الى اعلى المئذنة أنبسطت المدينة تحته بسقوفها الحمراء الجميلة ، وانبسطت كذلك الافاق من حولها .

المئذنة والكنيسة تقومان مقابل القصر العربي القديم الذي اصبح بعد خروج العرب من اشبيلية مقرا لملوك اسبانيا . وهو شبيه بقصر الحمراء في نقوشه وزخارفه ، وفي قاعاته وابهائه ، ولا سيما في الطابق الاول منه . الا ان الالوان فيه ما تزال على حالها بسبب استمرار العناية بالقصر . ومع الاضافات العديدة التي اضافها اليه ملوك اسبانيا اصبح يجمع بين الطراز العربي ، والطراز القوطي ، وطراز عصر النهضة ، والطراز الباروكي . ولكن النقوش والزخارف والكتابات كلها عربية ، ومن صنع فنانين عرب جيء بهم من غرناطة . حتى الابواب القديمة الضخمة ما تزال هي هي بكتاباتها ونقوشها . وقد استطعت ان اقرأ بعض ما هو واضح من الكتابات التي تزين الجدران والابواب ، فكان منها : (فيَ طالع السعد والسعادة الدائمة — العزة لله — ولا غالب الا الله — القدرة لله — حمدا لله على نعمه — عز لمولانا السلطان) وهناك كتابات اخرى كثيرة بالحروف الكوفية وغيرها ، ولكنني لم استطع قراءتها .

ونلاحظ ان هذه الكتابات مماثلة لبعض ما في قصر الحمراء .

وعبارة (عز لمولانا السلطان) هنا هي في قصر الحمراء (عز لمولانا السلطان ابي عبد الله امير المسلمين) واحد ابواب القصر الخشبية القديمة الضخمة على وجهه كتابات عربية كثيرة ، وعلى قفاه كتابات اخرى باللاتينية لم استطع قراءتها لتداخل حروفها باشكال زخرفية غير مقروءة ، وقد قيل لي انها من انجيل يوحنا .

قاعة السفراء في الحمراء هي قاعة السفراء في اشبيلية ، وغرف النوم هنا هي غرف النوم هناك ، والابهاء كذلك ، الا انه ليس بينها ، في اشبيلية ، بهو الاسود . كما ان التقليد في قصر اشبيلية — رغم الجمال الساحر في الالوان بشكل خاص — يظل دون قصر الحمراء في مجموعه ، وفي قبابه خاصة . القباب في قصر الحمراء عجيبة ساحرة بثريات الجبس المحفورة باشكال هندسية دقيقة رهيفة جدا ، اما هنا فالقباب من الخشب ، مع محاولة تقليد الحفر هناك .

لو كانت الوان قصر الحمراء الاصلية ما تزال باقية لكان اشد سحرا واسرا — رغم كل ما فيه من سحر واسر — ولكن الاهمال الذي اصابه بعد خروج العرب منه اتى على الكثير من الوانه . اما قصر اشبيلية فقد ظل عامرا باهله العرب اولا ، وبملوك الاسبان من بعدهم. وفي جناح حديث منه ينزل الجنرال فرانكو كلما ذهب الى اشبيلية .

وحدائق قصر اشبيلية في وسط الساحات الداخلية هي تقليد لحدائق قصر الحمراء وجنة العريف ، ولكنها لا تصل الى مثل جمال جنة العريف ، وان كانت لا تقل جمالا وتنسيقا عن حدائق قصر الحمراء الداخلية .

وبرج الذهب هو احد الحصون العربية القديمة ، يقف على شاطىء النهر الكبير شامخا كما كان من قبل حين اقيم لحراسة المدينة من هجمات الاعداء . واستدارته تتالف من اثنتي عشرة زاوية .

اما الكاتدرائية فهي قوطية الطراز ، يرتفع سقفها عاليا على اعمدة جبارة هائلة الضخامة ، وجدرانها عارية كلها من النقوش والزخارف ، ولكنها ملأى باللوحات الفنية الاصلية من صنع الرسامين الاشبيليين بيلاسكيث وموريو . وفيها من كنوز الذهب والجواهر والفضة ما لا يقدر بثمن . وفي وسط الكنيسة قبر كريستوفر كولومبوس يقوم على ظهره اربعة تماثيل من الحجر اكبر من حجم الانسان العادي ، يمثلون ملوك الممالك الاسبانية الاربع حينئذ ، يحملون تابوت كولومبوس ، وفي يد كل منهم حربة طويلة رأسها الى الارض ، وحربة احد الشخصين الاماميين مغروزة في قلب رمانة كبيرة ، وقد فلقتها ، اشارة الى سقوط غرناطة (اسمها بالاسبانية : غرانادا — أي الرمانة) في اليوم نفسه الذي ذهب فيه كولومبوس لمقابلة الملكين فردينانو وايزابيلا ليطلب منهما السماح له بالقيام برحلته التي اكتشف فيها اميركا .

وفي اشبيلية ايضا قصر اخر عربي النقوش والزخارف ، يدعى (بيت بيلاطس) . وكان يملك هذا القصر دوق مدينائيلي (او مدينة سالم ، كما كان اسمها العربي) وكان الدوق قد زار القدس في القرن السابع عشر ، فلما عاد منها اراد ان يقيم في اشبيلية مراحل درب الصليب كما هي في القدس ، فكان قصره هو المرحلة الاولى ، كما كان قصر بيلاطس البنطي في القدس هو المرحلة الاولى من درب الالام الحقيقية ، ولهذا دعاه (بيت بيلاطس) . ثم تمضي بقية المراحل في شوارع المدينة واحيائها حتى تنتهي عند مكان سماه (الجلجلة) واقام فيه بناء صغيرا ذا اربعة ابواب ، في وسطه صليب كبير .

وما يزال أهل اشبيلية الى اليوم يطوفون كل يوم جمعة من صوم الفصح في هذه المراحل ابتداء من بيت بيلاطس حتى ينتهوا عند الجلجلة ، كما يفعل المسيحيون في القدس .

وهناك ايضا قصور اخرى عديدة ، قديمة وحديثة ، تزهو بنقوشها وزخارفها العربية (الموديخار ، كما يدعونها) . وفيها كذلك حدائق ومتنزهات فسيحة هائلة المساحات . وتشتهر المدينة بصناعة الخزف الجميل جدا بالوانه ونقوشه ، ويصنعون منه لوحات رائعة الجمال يزينون بها الفنادق الفخمة والقصور والابنية الكبيرة .

* * *

قضيت في اشبيلية ثلاثة ايام . وفي مساء اليوم الثالث عدت الى مدريد في قطار التالفو السريع جدا ، والذي لم ار له مثيلا في أي بلد في اوروبا . فلم تستغرق الرحلة سوى ست ساعات ، مع انها في القطر العادية الاخرى تستغرق اكثر من عشر ساعات .

وفي اليوم التالي لوصولي الى مدريد ذهبت بعد الظهر الى وادي الشهداء (فايه دي لوس كائيدوس) والى الاسكوريال . ووادي الشهداء مكان يقع بين جبال خضراء تطوقه من كل جانب ، وفي وسطه جبل صخري من الغرانيت يعلو مئة وخمسين مترا ، وقد نصب فوقه صليب من الاسمنت وحجر الغرانيت علوه مئة وخمسون مترا اخرى ، وفي داخل الصليب مصعد يصعد الى اعلاه ، كما يقولون — ولم ار ذلك بنفسي — وتحت جبل الغرانيت حفرت كاتدرائية هائلة الى عمق ثلاثمئة متر في قلب الحجر الصلد ، ذات سقف مرتفع مقوس . وامام الكنيسة ساحة فسيحة جدا مرصوفة كلها ببلاطات من حجر الغرانيت.

حفر الكنيسة بكل هذا العمق الهائل في قلب جبل الغرانيت ، بسقفها العالي ، هو اشبه بالمعجزة حقا . وقد قامت الحكومة الاسبانية بهذا العمل الجبار تكريما للابطال الذين سقطوا في الحرب الاهلية الاخيرة . وفي قلب الكنيسة قبر القائد خوسيه انطونيو ، رفيق الجنرال فرانكو ، ومؤسس حركة الفلانج .

اما الاسكوريال فاهم ما فيها البناء الهائل الذي يضم القصر والكاتدرائية والمكتبة ومدفن الملوك . واروقته تحمل لوحات جدارية من اكبر ما عرفه العالم من لوحات الجدران . ومدفن الملوك قاعة مستديرة ، عالية السقف ، جميلة النقوش ، ينزل اليها المرء عدة درجات من الرخام الجميل . وفيها توابيت رخامية بنية اللون لملوك اسبانيا . واما المكتبة فانها تضم عدة الاف من المخطوطات النفيسة الفريدة ، بينها الفا مخطوطة عربية نادرة مزينة بالرسوم الجميلة جدا ، وبينها كذلك مصاحف واناجيل وكتب توراة ثمينة جدا لا مثيل لها . والمكتبة ومدفن الملوك هما اهم ما استأثر باهتمامي في المدة القصيرة جدا التي قضيتها في الاسكوريال .

وفي اليوم التالي ذهبت الى طليطلة (توليدو) التي تبعد عن مدريد نحو خمسة وسبعين كيلو مترا . وفي الطريق عرج بي السائق على قرية صغيرة قال لي ان في كنيستها ثلاث لوحات اصلية للرسام الشهير ((الفريكو)) اكتشفت هناك حديثا . فدخلت الكنيسة والناس فيها يقيمون صلاة الاحد . كانت واحدة من اللوحات رائعة حقا ، وهي لوحة شخصية ، ولكن لم يكن ينقصها غير ان يتكلم الشخص المرسوم فيها ، وغير ان تتحرك النار في الموقدة الى جانبه . والصورتان الاخريان كانتا اقل روعة منها .

وها انا اخيرا في طليطلة : المدينة التي حكمها العرب حتى عام ١٠٨٥ ، ثم كانت عاصمة اسبانيا حتى عام ١٥٦١ حين نقل الملك فيليب الثاني العاصمة الى مدريد لان طقس طليطلة البارد لم يكن يناسب صحته . وهكذا اصبحت المدينة منذ ذلك الحين تعيش على امجاد تاريخ قديم .

مدينة صغيرة تحتل تلا كبيرا من سائر سفوحه الى قمته ، يطوقها نهر تاخو من ثلاث جهات ، والسور العربي الذي لا يزال قائما الى الان من الجهة الرابعة . وعلى النهر جسران عربيان فيهما اثار رومانية قديمة على جانبي المدينة من اليمين والشمال . المساجد العربية والمآذن ما يزال بعضها قائما الى اليوم في انحاء مختلفة من المدينة ، ولكن المسجد الجامع الكبير في وسطها زال من الوجود ، وتقوم مكانه الكاتدرائية الكبرى . وهي اليوم اهم ما في طليطلة من اثار تستأثر باهتمام السياح . انها كنيسة تجمع بين الهندسة القوطية والزخارف العربية ، وفنون الرسم والنحت البالغة الروعة . وهي من اغنى الكنائس بما تحويه من الكنوز والنفائس من الجواهر والذهب والفضة. وكلها محفوظة في غرفة تسمى (ال تيزورو) او (الكنز) ، ولا نفع منها غير انها تعرض على السياح : لا يستفيد منها الله ولا البشر . اما التماثيل واللوحات العديدة المدهشة التي تملأ جوانب الكنيسة والقاعات المحيطة بها فانها اعمال فنية لا تقدر بثمن . واللوحات من صنع اشهر الرسامين ، من امثال : الفريكو ، وتيتسيان ، وفان دايك ، ودافنشي ، وغيرهم .

وهناك قصر ضخم يقوم على اعلى التل يدعونه (الكاثار) . وكان قصرا عربيا في الاصل ، حتى عام ١٩٣٣ ، ولكن صمود المدينة في وجه الشيوعيين في الحرب الاهلية اثنين وسبعين يوما كانت نتيجته تدمير هذا القصر تدميرا كاملا بمدافع الشيوعيين . وبعد الحرب اعيد بناؤه بشكل حديث ، فلم يبق للقصر العربي من اثر .

وفي طليطلة شيء اخر يهم الرسامين كثيرا ، وهو بيت الرسام الفريكو ومتحفه . وقد زرت البيت والمتحف ، غير ان ما فيهما من لوحات الفريكو الاصلية قليل جدا ، واهم اثاره الفنية في الكاتدرائية، وفي اماكن اخرى من كنائس اسبانيا ومتاحفها . وغرف البيت صغيرة كلها في الطابقين اللذين يتالف منهما ، ولكن البيت رغم ذلك جميل على بساطته وعلى قدمه .

ان اثار الحرب الاهلية ما تزال بادية في طليطلة ، وما يزال الخراب فيها غير قليل ، حتى في بعض الكنائس التي كان يحتمي فيها المدافعون عن المدينة .

* * *

بزيارة طليطلة تأتي رحلتي الى نهايتها تقريبا . حتى مدريد التي اقمت فيها خمسة ايام ، لم استطع ان اراها كما يجب : لم ار اثارها ولا متاحفها ، ولا اتيح لي ان اتصل بادبائها وفنانيها . لقد تجولت في شوارعها مرات بحكم تنقلاتي الاضطرارية فقط . ومن اهم ما استرعى انتباهي فيها الحدائق الجميلة المتعربشة على شرفات بيوتها الضخمة . هناك قصور عديدة تغص كل شرفاتها بالحدائق الجميلة المتدلية ، فكانها حدائق بابل المعلقة . وهو منظر لم ار مثله في غير اسبانيا . اما الساحات الواسعة التي تتوسطها الينابيع المتفجرة بالماء ، والتماثيل العديدة في الشوارع والساحات ، وفي قلب الينابيع ، والحدائق ، والمتنزهات الجميلة ، فانها كثيرة جدا ، وتضفي على المدينة جمالا كثيرا .

لقد غادرت مدريد دون ان اعرفها جيدا ، ولكنني عدت من اسبانيا بانطباعات لم اعرف مثلها في اية رحلة سابقة . فاسبانيا هي البلد الوحيد الذي يجمع بين أروع ما في حضارة العرب الشرقية ، واجمل ما في اوروبا الحديثة في تنسيق رائع مدهش . الشرقي يجد فيها جو الشرق بكل جماله وقوته ، والغربي يجد فيها جو الغرب باحدث ما فيه واجمله . والشعب الاسباني في مجموعه شعب صديق لنا . وهو يعتز بماضيه العربي في الاندلس ، ويعتبر تلك الفترة من ازهى عصور تاريخه . والسلطات الاسبانية تؤيدنا في كل قضايانا ومواقفنا السياسية . لم تعترف اسبانيا باسرائيل ، ولم تخذل العرب في أي موقف . وحين وقعت مأساتنا الاخيرة في حزيران الماضي كان مندوب

(١ و٢ و٣) رحلة الاندلس ، للدكتور حسين مؤنس — ص ٧٢ و٧٣ و٧٥ . (٤) تاريخ الفكر الاندلسي ، للدكتور حسين مؤنس — ص ٥٩ — ٦٠ . (٥) نظمت هذا البيت وتركته وحيدا فريدا ، وكنت اقصد عندما نظمته ان اجعله مطلع قصيدة كاملة . (٦) هو الاخ مهدي بغدادي.

الى شاعر

●

كتبت تقول الـي الغداة   أحبك رمـزا لدنيـا الجمال
أحبك ... لا تسالي كم أحب   فليس يحيط بحبـي سؤال
وأهفو اليك كانـي شريـد   يفتش عن واحة فـي الرمال
ومن يومها ... وأنـا لا أنام   وقلبي فـي نشوة وانفعال
وأشعر انـي قطفت النجوم   ملأت يـدي بدنيـا المحـال
وانـي تهدهدنـي راحة   تلـون عمري بشتى الظلال
وان لاح في الافق طيف المساء   وآذنـت الشمس بالارتحال
يطيـر فؤادي بغيـر جناح   وفـوق ذراك يحـط الرحال
ويركع كالطفل بيـن يديـك   ويشرح داء الغرام العضال !
حبيبي !.. تعال لتصغي الفداة   لخفقة قلبي !.. تعال ! تعال
تعـال لكيمـا اقـول اليـك   كلاما رقيق الشذى لا يقـال
تعـال أبثـك مـا يعتريني   وما أنـا فيه من الانشغال
فاني اخاف اذا لـم تجئني   رعودا تقهقـه خلف الجبال
أخاف بأن يمطر الليل حزنـا   فتخطفني منـك كف الزوال
تمـر ببابـي صبـاح مساء   فأرنو اليـك وكلـي انثهال
واعول في الصمت حزنا عليك   كما تعول الريح .. ريح الشمال
لانـك وحدك عبر الطريق   حزين .. تصارع سود الليال
أحبك ! فارفق بحبـي الكبير   يسهر عينـي الليالي الطـوال
فحبي أنـا خالد .. لا يموت   كما النجـم لا يعتريه الكلال
وما أجمل الحب يهدي خطانا   ويعصم أرواحنا مـن ضلال

عمان ـ الاردن   **عبد الرحمن عاليه**

اسبانيا في هيئة الامم ، السنيور منويل اثنار ، من اقوى المدافعين عن العرب في وجه اسرائيل واعوانها . وقد استقال السنيور اثنار اخيرا بسبب كبر سنه ، ولكن هل نال شيئا من التقدير من اية دولة عربية ؟ لكم وددت ، وود معي الكثيرون من الاخوان العرب في مدريد، لو قامت دولة عربية واحدة بمنح هذا الرجل وساما على موقفه النبيل منا في وقت محنتنا . فليت الاردن يكون صاحب المبادرة النبيلة في تكريم الرجل .

* * *

لقد عدت من رحلتي الاندلسية ممتلىء النفس بروعة تاريخنا الاندلسي المشترك ، وزهوة حضارتنا التي خلفناها هناك . وكلما رأيت اثرا من اثار الماضي العظيم كنت احس بالدمع يكاد يطفر من عيني ، فاردد بمرارة :

عيني ترى الماضي فتبكي لـه   يـا ليت ماضينا هو الحاضر ! (٥)

وحين كنت اتجول في قصر الحمراء في غرناطة التقيت في بهو الاسود بصديق من السفارة العراقية في مدريد (٦) ، فلمـا تقدمت للسلام عليه كان ذاهلا مبهوتا ، وقال لي حين رآنـي : « أتصدق يا عيسى اننا صنعنا هذا قبل اكثر من ستة قرون ؟! » فاجبته بحسرة مثل حسرته : « الذي يعرف حاضرنا لا يمكن ان يصدق ماضينا ! »

قبل سبعة قرون كنا افضل الف مرة مما نحن الان . كانت لنـا حضارة تفيض النور على الدنيا بأسرها ، وكنا سادة الدنيا : علما ، ومدنية ، وفنا ، وقوة . فأين نحن اليوم من ذلك كله ؟؟

ولكن الدنيا دول . والذين استطاعوا ان يصنعوا معجزات الماضي لا يعجزون عن ان يصنعوا مثلها متى عرفوا طريق الوحـدة والقوة ، ومتى آمنوا بأنفسهم ، وعاشوا بعقلية زمانهم .

عمان ـ الاردن   **عيسى الناعوري**



مصطفى عبد الواحد

موقف الشعر الاسلامي من العاطفة

بقلم مصطفى عبد الواحد
ماجستير في الادب والنقد

* * *

لم تتغير نظرة الشعر العربي الى العاطفة نحو المرأة بمجرد ظهور الاسلام واذعان العرب له ودخولهم فيه افواجا . فقد كان لا بد ان يمضي زمان تعمل فيه القيم الخلقية والفكرية التي جاء بها الاسلام ، عملها في تبديل المثل الجاهلية وصنع الوجدان الاسلامي الذي يصدر عن مبادىء الاسلام ويتسق مع نظرته للكون والحياة .

ولهذا جرى الغزل في الشعر العربي في صدر الاسلام على العهود في الشعر الجاهلي ، وكل ما طرأ عليه في صدر الاسلام ان زايله الفحش وتحرج الشعراء من التصريح بالفجور او الاشادة باللهو ، على نحو ما كان يصنع شعراء الجاهلية . فظلت نظرة الشعر في صدر الاسلام الى المراة هي ذاتها النظرة الحسية التي تحفل بالمفاتن وتصف ما يملح للعين . ولم يكن هناك حرج في ترديد هذا الشعر وروايته ، فقد كان شعراء صدر الاسلام يفتتحون قصائدهم على نمط الشعراء الجاهليين بالغزل ووصف المراة ، حتى في مواقف الدفاع عن الاسلام والاشادة بأيامه ومشاهده .

فهذا حسان بن ثابت يفتتح قصيدته في يوم بدر بقوله :

تبلت فؤادك في المنام خريدة	**تشفى الضجيع ببارد بسام**
كالمسك تخلطه بماء سحابة	**او عاتق كدم الذبيح مدام**
نفج الحقيبة بوصها متنضد	**بلهاء غير وشيكة الاقسام**
بنيت على قطن أجم كانه	**فضلا اذا قعدت مداك رخام**
وتكاد تكسل ان تجيء فراشها	**في جسم خرعبة وحسن قوام**
اقسمت انساها واترك ذكرها	**حتى تغيب في الضريح عظامى (١)**

فهذه التي اسقمت فؤاده وامتلكت لبه ، فلا يفتر عن ذكرها بالنهار ولا يغفل عنها في احلامه ، والتي عاهد نفسه على الوفاء لها والابقاء على ذكراها حتى تغيب في الضريح عظامه ، ليست الا امراة توفرت لها مقاييس الجمال الحسية حسب الذوق المألوف في عصره ، من البدانة والليونة وحسن القوام ، وهي مدللة ناعمة حتى لتكاد ان تكسل عن اتيان فراشها .

فأي اختلاف بين هذه الصورة التي يرسمها حسان بن ثابت لفتاة احلامه وبين ما رسمه شعراء الجاهلية ؟ واي أدراك جديد او احساس بالعاطفة السامية اهتدى اليه حسان في هذا الغزل ؟!

حقا انه غزل مصنوع ـ ربما لا يعد تعبيرا عن وجدان قائله ـ لكنه يصور المقاييس الفنية التي كانت تستقر في اخيلة الشعراء في ذلك الحين ، ويدل على النظرة السائدة الى المراة ، فاذا أضفنا الى ذلك ان القصيدة التي بداها حسان بهذه الابيات تصور مشهدا من مشاهد الاسلام وتتحدث عن هزيمة الكفار يوم بدر ، ادركنا انه لم تكن ثمة صورة ارفع من هذه في وجدان حسان بن ثابت والا لما بخل بها في هذا الموقف الكريم ..

فلم يكن الشعر العربي قد اهتدى بعد الى نظرة ارفع الى الصلة النفسية بين الرجل والمراة ، ومن هنا لم تختلف المعايير الفنية في التصوير عن معايير الجاهلية .

وحسب الاسلام في هذه الفترة الاولى من تاريخه انه افلح في تحويل انظار الشعراء عن الاسفاف وزجرهم عن تصوير الخطايا ، استجابة لداعي الايمان وحفاظا على القيم الاخلاقية التي استمسك بها المجتمع الاسلامي ، وقد كان لتلك القيم اثرها في تطهير المجتمع العربي ، وساعد على ذلك ما اشتغل به المسلمون من الدفاع عن عقيدتهم والجهاد في سبيل الله ، في مواقع متصلة لم تدع للدعة والاطمئنان الى الشهوات سبيلا ..

لكن التعبير الفني عن النظرة الى المراة لم يطرأ عليه تغيير ، ولم يهتد الشعراء الى ادراك جديد للعاطفة في تلك الفترة من صدر الاسلام .

وفي العصر الاموي كان الوجدان العربي قد تأثر بمبادىء الاسلام وأضحت القيم الاسلامية قادرة على خلق الصور الفنية لدى الشعراء ، فشهد الادب العربي لونا جديدا يصور عاطفة سامية ويعبر عن ادراك جديد للصلة

(*) راجع (فكرة الشعر الجاهلي عن العاطفة) « الاديب » عدد نوفمبر ١٩٦٧ صفحة ١٩

بين الرجل والمرأة لم يألفه الشعر العربي من قبل .. ذلك هو شعر الحب العذري او العفيف . وقد نشأ هذا الشعر تعبيرا عن تلك العاطفة الجديدة التي عرفها العرب بعد الاسلام في البوادي والامصار ، وهو ما عرف باسم « العشق العذري »وقد ولد هذا اللون من العاطفة ومن التعبير عنها ونما في الحجاز وفي نجد خاصة ، ومهد له امور من اهمها :

١ ـ التأثر بالاسلام في جانبه الروحي والخلقي ، والاستجابة لتوجيهه في اجتناب الفاحشة والزهد في المتاع الحرام . وقد كان هذا التأثر طبيعيا في البيئة العربية بعد ان مضت فترة طويلة على اعتناق العرب للاسلام كانت كافية للاستجابة الوجدانية والتأثر بالمبادىء والافكار .

وقد تجلى الكثير من مبادىء الاسلام في الوان الشعر العذري كعقيدة القضاء والقدر والايمان بالآخرة وتأميل اللقاء فيها ، وكف نوازع الهوى وملكة النفس الامارة بالسوء وغير ذلك .

٢ ـ توفر الاسباب التي هيأت للعرب رخاء العيش ودعة الحياة بعد ان فتحوا عواصم العالم الكبرى في ذلك الوقت ، وصارت لهم الغلبة السياسية والاقتصادية نتيجة لغلبة عقيدتهم وزعامتهم في الناحية الروحية ، ففتحت لهم ابواب العيش الكريم واطمأنت بهم الحياة ، وزايلهم طابع البداوة والارتحال ، وعرفوا نعمة الامن والاستقرار .. ومن ثم فقد انفسح امامهم المجال للتأمل والاصغاء الى المشاعر والخواطر ، واتسعت حياتهم للاحاسيس المرهفة والخيال المحلق .

٣ ـ كما تهيأ للحجاز عامل آخر ساعد على نشأة ذلك اللون من العاطفة والادب المعبر عنها ، وهو انتقال الزعامة السياسية من الحجاز الى الشام ، بعد ان صارت دمشق عاصمة الخلافة الاموية ، فتفرغ الحجازيون للعلم والادب ، واكتسبوا رقة في التصوير وصفاء في التفكير ، وكان شعر العاطفة من اهم ما جددوا فيه وابدعوا .

وقد اشتهرت نسبة ذلك الحب العفيف بخصائصه جميعا الى « عذرة » وهي قبيلة من اليمن تناقل الرواة اخبار العشاق منها ، واصبحت رمزا لاتجاه جديد في الوجدان العربي له مبادئه وخصائصه . وقد كان بنو عذرة يفخرون بشيوع هذه العاطفة فيهم وتضحيتهم في سبيلها ، كما يدل على ذلك هذا الخبر الذي رواه السراج في كتابه « مصارع العشاق » ان رجلا من بني فزارة قال لرجل من بني عذرة : تعدون موتكم من الحب مزية ؟! وانما ذلك من ضعف البنية ووهن العقدة وضيق الروية .

فقال العذري : اما انكم لو رأيتم المحاجر البلج ترشق الاعين الدعج (٢) من فوقها الحواجب الزج ، والشفاه السمر تفتر عن الثنايا الغر كأنها سرد الدر ، لجعلتموها اللات والعزى ورفعتم الاسلام وراء ظهوركم !

والحق ان ذلك الحب العذري ، كما تصوره اشعار العذريين واخبارهم ذو خصائص جديدة ما كانت العرب تلقى لها بالا من قبل .. فأول ما يبدو فيه الايمان بالعفاف ايمانا يجعل منه روح ذلك الحب ، فاذا زايل الحب العفاف فهو فجور ، وليس من العاطفة في شيء.

ومن هنا فلم يكن لذلك الحب من غرض حسي ، بل كانت غايته الرؤية أو القناعة بالذكرى والتصور في الخاطر ، او رؤية الطيف في الاحلام ، او تمنى اللقاء ولو بعد قيام الساعة !

وكان من ابرز خصائصه ان المحبوب ارفع درجة من المحب فلا يؤاخذ على ذنب ولا يقابل باساءة ، بل ولا عتاب ، كما تفيض بذلك اشعار العذريين على عكس ما كان في الشعر الجاهلي من مقابلة الصرم بمثله ومن التشنيع على الغدر والهجر .

ويتبع ذلك ان يقف المحب دائما موقف الذلة وان يرضى بالحرمان حظا له في الحياة ، فهو يقضي عمره يتغنى بآلامه ويصور اشجانه ، وحسبه ذلك من عاطفته الملتهبة .

وقد كان لهذا اللون الجديد من الشعر العفيف المعبر عن العاطفة المصور للخلجات والمشاعر شعراء كثيرون اشتهر منهم في العصر الاموي : ١ ـ جميل بن معمر ، ٢ ـ كثير عزة ، ٣ ـ ذو الرمة .

وفي العصر العباسي كان هناك شاعر فذ لم يرتق احد من معاصريه الى رتبته في مجال العاطفة هو العباس بن الاحنف . وليس هدفنا الان دراسة الوان التعبير لدى هؤلاء الشعراء ، ولكننا نلفت النظر الى ان هؤلاء قد حملوا لواء لون جديد في الشعر العربي ، هو تصوير العواطف الرقيقة في نقائها وطهارتها وفي وفائها وثباتها، حتى لقد وقف بعضهم شعره كله على هذه العاطفة ، مثل جميل بن معمر والعباس بن الاحنف .

وقد كان لهؤلاء الشعراء تجارب في عالم العاطفة ، او بمعنى آخر كانت اشعارهم صدى لآمالهم وآلامهم وتعبيرا عن وجدهم واحساسهم ، وقد اشتهر جميل بحبه لبثينة وكثير لعزة وذو الرمة لمي ، والعباس بن الاحنف لفوز .

وهؤلاء الشعراء يتفاوتون في الاجادة في التعبير عن معاني الحب وفي الرقة في الصور والجمال في الاساليب ، واعلاهم في ذلك شأنا العباس بن الاحنف الذي أخلص شعره لعاطفته وبرع في تحليل المعاني وتصوير الخلجات .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ ـ ١٦ . (٢) في مصارع العشاق : الدلج . ولعلها تحريف . (٣) الزهرة ٥٣ . (٤) ص ٦٠ من الزهرة . (٥) الزهرة ص ٤٠

وقد أصبحت اشعار هؤلاء العذريين وسيلة لتقرير معاني العاطفة واساسا تقوم عليه قواعدها ومقاييسها . فأولئك أصحاب اتجاه متميز في الشعر الاموي والعباسي ، والى جوارهم عاش شعراء آخرون لايحفلون بصدق العاطفة ولا يجيدون التعبير عنها ، كما عاش معهم آخرون أو جاءوا بعدهم لم يشتهروا بالحب ولم يعانوا تجربته ، ورغم ذلك فقد استطاعوا التعبير عن معانيه تأثرا بهؤلاء العذريين او محاكاة لما شاع في البيئة الاسلامية من معان وعواطف ، مثل جرير الخطفي والمؤمل وخالد الكاتب ، ويزيد بن الطثرية وابي تمام والبحتري وغيرهم .

ومن كل ذلك وجد الدارسون الاسلاميون لموضوع العشق مادة خصبة ووسيلة مهيأة ، ليستشهدوا على المعاني او يحللوا المشاعر او يضعوا لها المبادىء والحدود.

وحين ننظر الى جانب الشعر في كتاب « الزهرة » لابن داود الظاهري مثلا ، نجده قد حوى خمسة آلاف بيت من الشعر ، منها قدر ضئيل من الشعر الجاهلي ، وباقيها من شعر العذريين وغيرهم من الشعراء الامويين والعباسيين ، وذلك يؤكد لنا هذه الروح الجديدة التي سرت في الشعر الاسلامي والتي تغيرت فيها النظرة الى المرأة والعاطفة نحوها ، فأصبحت تحفل بالعاطفة وتقف منها موقف الخشوع والإجلال .

ولم يكن باستطاعة الشعر العربي ان يغير موقفه من العاطفة أو يحسن التعبير عنها ويهتدي الى رقيق المعاني ودقيق الافكار لو لم يتغير موقف المجتمع العربي بفضل الاسلام ، من المراة هذا التغير العظيم ، فارتفعت مكانتها وعلا شأنها ، ولو لم يتطهر ذلك المجتمع من الآثام والفواحش ويعرف المبادىء الكريمة والمثل العالية . ولا يغض من جلال هذه الحقيقة انه في كل العصور الاسلامية وجد شعراء لهو ومجون ، فتلك ظاهرة لا بد منها ولا محيد عنها في كل مجتمع ، غير ان شعراء اللهو والمجون لم تنتشر اخبارهم ولم يشع ذكرهم الا لارتباطهم بطائفة الحكام ، الذين شجعوا على تدوين هذا المجون واشاعته.

وهناك شعر شعبي للآحاد غير المشتهرين من الشعراء الاسلاميين ولافراد مجهولين حفظ المجتمع الاسلامي اشعارهم واعتنى برواية بعضها الرواة ، ولكن هذا الشعر الشعبي لم ينل من العناية ما ناله الشعر الرسمي المرتبط بالامراء والوزراء . ويدلنا على ذلك ان كتاب « الزهرة » لابن داود قد حوى جانبا كبيرا من هذا الشعر الشعبي أو غير الرسمي ، رواه عن الاعراب والآحاد والنساء والمجهولين ، ولكن احدا لم يهتم بهذا الجانب بعد ابن داود .

فلا يعنينا في شيء أن يكون هناك شعر مجون ولهو واستخفاف بالعاطفة ، لان هؤلاء الماجنين واللاهين انما عبروا عن سلوكهم وتصورهم وبيئتهم ، ولم يعبروا عن موقف المجتمع كله من العاطفة ، وكثيرا ما كانت اشعارهم تقابل بالاستخفاف والاستنكار ، وقد كان هؤلاء الماجنون على وعي بما جد في البيئة العربية من تغيير ، وعلى ادراك للمقاييس العاطفية والاخلاقية التي شاعت في المجتمع الاسلامي .. بدليل ان أبا نواس شاعر المجون واللهو ، قد صدر عنه من الشعر ما يصلح للاستشهاد على العاطفة السامية او يرتقي الى افقها الكريم . وقد استشهد ابن داود في كتاب الزهرة ببعض اشعار ابي نواس في احد عشر موضعا يتسق بعضها مع مبادىء العذرية كقوله :

يا كثير النوح في الدمن　　لا عليها بل على السكن
سنة العشاق واحدة　　فاذا أحببت فاستكن (٣)

وقوله :

لا والذي لا اله الا هو　　ما خان احبابنا وما تاهوا
ما علموا بالذي يجن لهم　　من طول شوق ولا دروا ما هو (٤)

وقوله :

قالت ظلوم سمية الظلم　　مالي رأيتك ناحل الجسم
يا من رمى قلبي فاقصده　　انت الخبير بموقع السهم (٥)

وكذلك الفرزدق وهو الفليظ الحس الجافي الخلق نجد له في كتاب الزهرة شواهد أرتقى في بعضها الى مبادىء العذرية ، كقوله :

لئن كان في الهجران اجر لقدمضى　　لي الاجر في الهجران مذ سنتان
فوالله ما ادري أكل ذوي الهوى　　على ما بنا أم نحن مبتليان

وهذا يؤكد انه كانت هناك قاعدة عامة تلتزم بمبادىء وقيم خلقية ونفسية ، وان مفهوم العاطفة في الشعر الاسلامي قد تغير عن مفهومها في الشعر الجاهلي كل التغير ، وان الاتجاهات الفنية في التعبير عن العاطفة وفي النظر الى المراة قد تغيرت تبعا لتغير القيم والمبادىء والاخلاق بفعل الثورة الفكرية والاجتماعية التي شملت المجتمع العربي بعد الاسلام .

القاهرة　　**مصطفى عبد الواحد**

قطرات دم

الليل يترعرع في حياتي
زهرة برية سوداء
النجوم قطرات دم
من بلبل عاشق جريح
وانا ، كنت فيما مضى
ليلا .. زهرة برية .. نجوما
وقطرات دم من بلبل عاشق جريح

دمشق　　سليمان عواد



جنة الصعاليك

بقلم مصطفى ابو النصر

ان احدا لا يريد ان يقتنع ، وعلى كل حال ، فان هذا لا يعنيني كثيرا ، فالمسألة مسألة مبدأ .

واذا كنت – ايها السادة – لم استطع حتى الان ان اتخذ لي موقفا محددا ، فان هذا في حد ذاته مبدأ .

نظر الي الجميع في دهشة ، وكأنهم يتأملون مخبولا . والحق انني كنت اقرب ما اكون الى شخص معتوه . لم اكن قد غسلت وجهي ، او حلقت ذقني ، ومنذ ثلاثة اواربعة اشهر ، لم اذهب الى الحلاق . وكان حذائي متهرئا أجرب ، حال لونه البني ، فصار مخلوطا بسواد قذر . واقترب مني احدهم ، وربت على كتفي غير انني ازحت يده في جفاء، جعله ينظر الي نظرة راثية ، ولمحته يتأمل الخروق والبقع التي في بدلتي. وكانت جيوبي منتفخة باشياء كثيرة ومتنوعة لا اعرفها على وجه التحقيق . وكنت اذا احتجت الى شيء ما – اي شيء – جعلت ابحث فيها كلها ، وقد اعثر او لا اعثر على ما اريد . وبدات في البحث عن سيجارة : دفست يدي في جيب الجاكتة الايمن ، فلم اجد ، فوضعتها في الجيب الايسر ، فلم اجد ايضا ، فوضعتها في الجيب العلوي – والاصل فيه انه مخصص للمنديل – ولكني لم اجد . وحين وضعتها في جيب البنطلون ، سألني احدهم عما ابحث عنه ، فرفعت بصري اليه ، وترددت قليلا ، ولكنني اجبته :

– كانت معي سيجارة

اخترقت اذني ضحكة سخيفة من احدهم ، واتبعها آخر بضحكة مماثلة ، وقال ثالث : يظهر عليك خرمان . ما الذي كان يمكن ان اجيبهم به ؟ كانت الكلمات – بالنسبة الي – قد فقدت معناها ، ولم اعد في حاجة لتفسير اي شيء ، الا ان عقلي كان يشرد دائما ، وكانت الصور تتراقص امامي بشكل غير عادي ، وكنت قد قدرت ان سيجارة ، ربما ثبتت كل هذه الاشكال المتحركة .

ان المسألة في رأيي مهزلة منذ البداية ، ومع ذلك فهي مستمرة . لا اريد ايها السادة – ان اسرد لكم تاريخ حياتي ، ان حياتي ذاتهالا قيمة لها ، فما بالكم بتاريخها ...

اخرج احدهم سيجارة ، وقدمها لي ، فخطفتها بسرعة ، ووضعتها بين شفتي . وعادت يدي تبحثعن كبريت . وجدته . مشط كبريت.. لم يكن به عود واحد ، قلبت الورقة في يدي والقيتها بعيدا . ما كدت ارفع بصري اليهم ، حتى كانت يد احدهم قد امتدت الي بولاعة فاخرة. وتسلل الدخان الى رأسي ، فشعرت بعروقي تتمدد ، وانتابني شبه خدر لذيذ . وكان احدهم ، يريد ان يعرف كل شيء ، ان يعي الحقيقة والدافع ، غير انني لم اهتم بسؤاله، كان طفيليا سخيفا ، ولم يكن احد الاثنين : صاحب السيجارة او مشعلها . رمقته بنظرة ذات معنى ، ولكن الغباء كان واضحا على ملامحه، فاسترحت الى انه لم يفهم المعنى المقصود .

استمعوا الي جيدا ، لقد قررت ان اكون صريحا وواضحا معا ، ولكن هذايحتاج الى شجاعةخرافية،



واستهتار لا حدود له . اتفقنا منذ لحظات على ان حياتي لا قيمة لها ، واضيف ، ان اية اشارة الىتفاصيلها لا يعني شيئا سواء بالنسبة لي او لكم . ولكن ما دمتم تريدون معرفة حقيقة هذه المسألة بالذات فان هذا يحتاج الى صبركم وشجاعتكم .. ما رأيكم ؟

قال احدهم باستخفاف :

– يعني

– فسألته :

– يعني ماذا ؟

اشاح بوجهه عني ، ولم يجبني بشيء . ولما كنت معتادا على اعراض الوجوه ، فقد اعتبرت حركته هذه تصرفا طبيعيا ومقبولا ، فلم اغضب ، وانما ابتسمت لقفاه ابتسامة حقيقية .

في هذه اللحظة ، مر «الجرسون» أمامنا . وكان طبيعيا ان استوقفه. لا بد ان اضع حدا لكبريائه . كان قد نظر الي شذرا ، وانا ادخل المقهى ، وهم ان يطردني ، ولكنني الآن كالآخرين تماما . تراجع ثم نظر الي من فوق كتفه ، وكأنه يتأمل حشرة مقرفة ، غير ان مثل هذه النظرات ، لا تؤثر في اطلاقا ، ما هي الا قرائن على عقليات تافهة.

– من فضلك فنجان قهوة سكر زيادة .

لم يهمني انه لم يعجبني ،مضى وكأنه لم يسمع شيئا . كنتاستطيع – مثلا – ان أهب من جلستي واتبعه ، ثم ارفع صوتي في وجهه لألقنه درسا في معاملة الزبائن ، ان افكارا كهذهتراودني دائما،ولكنني لا انفذها غالبا . ان هذه الجماعة التي اجلس معها الآن ، هي في حقيقتها مجموعة من الانذال . تبادلوا نظرات استطعت ان ادرك معناها الحقيقي ، كما ان احدهم لوى شفته السفلى في اشمئزاز ، تمنيت لو شددتها فمزقتها . ومضت فترة صمت ، ثم وضعت يدي في

جيب الجاكتة الداخلي ، واخرجت ثلاثة قروش ووضعتها على المائدة، كل قرش بجانب الآخر .

ــ سألني احدهم :

ــ ما هذا ؟

ــ فاجبته وعلى شفتي ابتسامة:

ــ ثلاثة قروش . .الا تراها ؟.

ولم ينطق واحد منهم بحرف .

لا بد انكم الآن على استعداد كامل . انني ــ في واقع الامر ــ لا اهتم بكل ما يهتم به الآخرون . ان لي وجهة نظر في الاشياءوالاقوال والافعال ،وحتى الحروف انشئتم. والغريب ، ان وجهة نظري هذه ، لا تفهمونها،والتي تعجبكم اوبالاحرى لا تفهمونها ، لم تخطىء ابدا . لا يعني هذا ــ طبعا ــ انني معصوم من الخطأ ، او انني اتلقى وحيا يهديني . المسألة في منتهى البساطة، بل انها ابسط من البساطة ذاتها ، ومع ذلك ، فانتم في حاجة الى تفسير مدعم بالادلة والبراهين .. ليكن ، طالما انكم لا تفهمون فمن حقكم علي ان اشرح لكم ما غاب عنكم . كان يمكن ــ مثلا ــ ان ادعي الفقر والعوز ، او الكذب فاقول : انني كنت املك اموالا طائلة ،خسرتها في البورصة ، او انني اقطاعي ، قتل من الفلاحين عدد شعر رأسه ، فاستحق الطرد من الجنة . غير انني لست من هؤلاء جميعا . اذن من انا ؟ وما دمت قد عاهدت نفسي على ان اكون صادقا معكم ، فمن البديهي ان اكون صادقا في الاجابة على هذا السؤال : من انا ؟

لم يحضر « الجرسون » القهوة. انها وقاحة ، انه استهتار . لا بد .. لا بد .. امسكني احدهم من ذراعي واجلسني . لا تعني القهوة بالنسبة لي شيئا مهما ، كل ما في الامر ، انني رغبت في شرب فنجان قهوة، وهي شراب مباح بالتأكيد . ان لم يحضر الفنجان ، سأضطر مرغما الى الخروج عن طبيعتي . لقد تحولت القهوة الآن ، الى شيء آخر، شيء ضروري ، وما دمت سأدفع ثمنها ، فلا بد ان يحضرها ، اما اذا رفض او تجاهل، فمعنى ذلك انني.. كلا .. لا داعي .

الفلسفة ايها السادة ــ ليست من طبيعتي ، كما ان الفلاسفة ، لا يزيدون في نظري عن كونهم مجموعة من الاطفال ، لا يحبون سوى لعبة واحدة : بيت جحا كل فيلسوف ، اقصد كل طفل ، يدخل البيت من بابه ، متصورا انه يستطيع ان يهتدي الى الباب الآخر .. باب الخروج ، غير ان ما يحدث هو عكس ذلك تماما اما ان يتوه في الداخل ، فيصرخ ويستنجد ، واما يظل يتلوى فرحا في المنحنيات معتقدا انه سيصل ، ثم يلمح بابا ، فاذا ما اندفع تجاهه وخرج منه ، اكتشف انه امام نفس الباب الذي دخل منه .

لست واحدا من اولئك او هؤلاء، فلا انا فيلسوف ولا انا طفل . انا مجرد شاب ، كنت ذات يوم ، ممتلئا شبابا وحيوية ، متصورا انني سأتمكن من غزو العالم بافكاري ومشاريعي ، غير ان مثل هذه الآمال ، لا تتحقق غالبا ، والسبب في ذلك معروف ، فصاحب الخيال، يكون عادة اقل قدرة من غيره على تحقيق ما يحلم به. وهذه هي نقطة الضعف الحقيقية بالنسبة لي. لقد عشت احلم سنوات طوالا ، ونسيت في اضغاث هذه الاحلام ، ان اعمل شيئا ، او احقق شيئا وفوجئت بانني ما زلت اقف في مكاني ، الذي كنت فيه منذ عشر سنوات . وهنا ، كان يمكن لاي انسان آخر ، يتمتع بشيء من قوة الارادة او التصميم ، ان يبدأ من جديد ، ملقيا بكل هذه الاحلام، خلف ظهره ، متمسكا بالواقع وما هو عليه . الا انني كنت قد فقدت القدرة على العمل ، ثم تضخم في رأسي سؤال رهيب : ما فائدة أن يعمل الانسان . وما قيمة العمل في حد ذاته ؟ ومن هنا نبعت كراهيتي للفلاسفة فقد تصورت ــ في لحظة خيل الي انها مشرقة منيرة ــ انني حتما سأعثر على اجابة مقنعة على هذا السؤال ،خلال افكارهم وكتبهم، ولكني صدمت بافكارمجردة ، تبحث في اشياء لا يمكن الوصول اليها ، فضلا عن الاقتناع بها . وفاجأني احدهم بسؤال جنوني : هل انا موجود ؟ وكان يمكن لسؤال كهذا ــ ايها السادة ــ ان يحدد موقفي من كل شيء . فاذا كنت موجودا ، فلا بد ان اعمل ، واذا كنت غير موجود، فكيف يعمل انسان غير موجود ؟اما كوني موجودا لانني افكر ، فتلك مشكلة لم تخطر على بالي من قبل . وصرت بعد هذا السؤال اقول : انه لا شيء موجود في هذا العالم على الاطلاق . لانني لم أستطع ان اتصور عدم وجود الترام والسيارة والازهار والشجر والحديد والشمس والقمر والبيوت والجبال والنجوم والانهار والبحار ، لمجرد انها جوامد لا تفكر. ولو ان كلام هذا الفيلسوف صحيح، وكلام غيره صحيح ايضا بالنسبة للانسان الاول ،لوقعنا في تناقض عجيب ، نتيجة قول العلماء بان الارض والسماء والكواكب والنجوم موجودة قبل وجود الانسان . وهنا انبثق هذا السؤال في رأسي : هل الانسان المعتوه المخبول المجنون ، غائب العقل ، والذي ليس له اية قدرة على التفكير ، هل مثل هذا الانسان موجود او غير موجود ؟

لم يحضر المجرم القهوة ، من يحسبني ؟.. انني ارثي له ، لما سيلقاه على يدي .. ولكن لنؤجل ذلك الآن .

وفي خضم هذه المعمياب الفكرية الهاذية ، سألت نفسي بدوري : من انا ؟ . ولم استطع بطبيعة الحال ان اصل الى اجابة حقيقية . ترى هل انا انسان او غير انسان ؟ هل انا

مهداة الى بخت

نخر انت والشراع جريح — فدع البحر ساعة يستريح
ظلمة لفت الوجود واعمت — مقلة النجم فالمسير جنوح
كنت تغري الابعاد غير مبال — ان تراءى او ان توارى ضريح
كنت تطفو وملء صدرك ري — يستفز الملاح حين يفوح
كنت كالنجم تائها في فضاء — لا تداني اقصاه مهما تسيح
عندما كنت مثقلا بالاماني — واندفاع المجذاف فيك طموح
انت والبحر في الجنون سواء — هو يرغي وانت تغدو – تروح
كم تدرعت بالرغاء وغابت — نجمة القطب لا هدى لا وضوح
أي درب عبرت في وسط اليم — وقامت عن جانبيها الصروح ؟
قد برى الموج جانبيك واوهت — قاسيات الضلوع هوجاء ريح
ذكريات مرت فامست خيالا — من بعيد لنضو عيش يلوح
سلس البحر بعد مد وجزر — واستكانت قيعانه والسفوح
وطوى الزورق الشراع والوى — بالمجاذيف واحتوته السفوح
ليس ذا البحر غير بحر حياتي — وانا الزورق الدعي الجريح !

الكسليك – لبنان — لويس ابي عتمة

موجود او غير موجود ؟ اذا كنت افكر فانا موجود واذا كنت لا افكر فانا غير موجود . وبدأت اراقب نفسي مراقبة شديدة . في لحظة انا موجود وفي اخرى انا غير موجود .. ما معنى هذا ؟.

ومن هنا – ايها السادة – قررت ان اعتبر نفسي موجودا وجودا ماديا فقط ، بمعنى ان جسمي هو الموجود، هذه حقيقة لا يمكن الشك فيها ، ولنفرض مثلا انني اصطدمت في جدار ، ترى اي منا هو الموجود ؟ انا أم الجدار ، ام كلانا موجود؟. على ان هذه مسألة بديهية ، لا تحتاج لتفسير اكثر . وعلى هذا فقد رأيت ان الغي التفكير من رأسي ، ان اعيش بلا تفكير ، وما دمت سألغي التفكير ، فأنا بالضرورة الغي وجودي ، وعلى هذا فمن الطبيعي ، الا يعمل انسان غير موجود .

وبدأت اتأمل الناس والاشياء من حولي ، وأسأل نفسي : هل هذا الانسان موجود او غير موجود ؟متى يكون موجودا ومتى يكون غير موجود؟

وتمنيت ان ارى انسانا في حالة عدم وجوده ، الا انني لم استطع، واستحال علي اقناع احد من الناس بكلمة واحدة مما أقول ، وأقسمت لهم ان هذا ليس كلامي ، وانما هو كلام فيلسوف كبير .. كبير جدا ، ولم يصدقني احد .

وذات يوم، نظرت في المرآة ،فلم استطع التعرف على نفسي او ملامحي ، وتلك كانت بداية المأساة، او المهزلة ، او المسألة .

القاهرة — مصطفى ابو النصر

خلاف.. في اربع عشرة رسالة ادبية

بقلم نادر ابـو السعود السباعـي

* * *

اديبان قصصيان، تجمعهما الصداقة منذ سنوات بعيدات، يقيم احدهما في بلدته في سورية ، ويقيم الاخر ـ وهو الاصغر سنا ـ في مدينة سورية كبيرة .. يشخص اكبرهما ، في فصل ربيع ، الى المدينة الكبيرة ، ويزور صديقه .. وكان لا بد ان يدور الحديث بينهما حول الادب ، شئونه وشجونه (نشر الصديق الاكبر خلال حياته الادبية كتابين قصصين ، ونشر الاصغر نحوا من عشرة) .

كان مع الصديق الاكبر ـ ولنسمه « عبد ال » ـ في زيارته ، مجموعة مخطوطة من قصصه ومسرحياته القصيرة التي لم تنشر او تمثل او تذع ، أودع بعضها عند صديقه الحميم ـ ولنسمه « فاء » ـ املا في تقديمها للنشر في الدوريات الادبية وبخاصة تلك التي تجزي كتابها .

ويبادر « فاء » الى تحرير رسائل يرفقها ببعض القصص : الى المجلة « ألف » التي تصدر في عاصمة عربية مجاورة ، ثم الى المجلة « باء » التي تصدر في دمشق ، والى ....

وما تكاد تصدر المجلة « باء » باديء ذي بدء ، متضمنة قصة من هذه القصص ، فيطلع عليها « عبد ال » ، مؤلفها ، حتى يثور محتجا على صنيع أتاه فيها صديقه « فاء » .. ويطير له احتجاجا في رسالة على جناح السرعة .. ويدافع « فاء » من هناك على صنيعه ويبرر دون جدوى .. وتتوالى بينهما الرسائل ، التي ما كان لها الا ان تجعل من الخلاف « أزمة » وتزيد نارها لهبا !

على ان اطرف ما في الرسائل التي تبودلت ، ذلك النقاش الادبي الحار ، وما استشهد به كل منهما من شواهد الادب انتصارا لوجهة نظره ! وشيء آخر يمكن ان تحمله هذه الرسائل : انها تظهر (مزاج) كل من المتراسلين في العمل والكتابة والخطاب ، ومقدار ما يتمتع به من (الحساسية) اذا ما دفع الى موقف من المواقف وازاء بعض العبارات والالفاظ خاصة .. كما توضح اسلوبه في معالجة المشاكل العارضة وفي اي ميزان يزن اموره .. وهذه الرسائل ـ اخيرا ـ مثال « نموذجي » لما يمكن ان يؤول اليه (سوء التفاهم) بين اثنين من الاصدقاء ، حتى ولو كانوا من حملة القلم المؤمنين بالكلمة !

واحب ان ابين للقاريء ، قبل ان اقدم له مجموعة الرسائل هذه ، اني توخيت (الحياد) في الخلاف الذي دار ، بقدر ما كنت (امينا) في نقل الرسائل من مصدرها عندما زرت احد الاديبين الصديقين في بلدته او في مدينته .. ولكني أجزت لنفسي ان احذف فقرات من آخر الرسائل (الرقم ١٤) لان اسماء فيها يكشف عن شخصية احدهما .. وقد حرصت على ان اخفي اسماء الاعلام كلها ، اشخاصا ومجلات وكتبا وقصصا ، فانما ابتغي من مقالي هذا ان اقدم الى القاريء « النموذج » مجردا من اصحابه .. ثم انني عمدت الى « التعليق » على الرسائل الاربع عشرة ، بحواش صغيرة ، كلما وجدت الامر يقتضيني توضيحا او تصحيحا او استدراكا .

١ ـ ٤/١٥

عزيزي رئيس تحرير المجلة « ألف » (١)

بعد التحية الخالصة ، هذه القصة « رقم ١ » لصديقي الاديب الاستاذ « عبد ال » ، القاص الذي لا يرحب كثيرا بنشر نتاجه الادبي ، وقد طبعت له رواية قبل عشر سنوات ، وأخرى قبل عشرين .

والقصة كما ارى جيدة ، وهي لم تنشر . أرجو أن نقرأهافي عدد قريب . وعنوان الصديق هو : ..... مع الشكر والاحترام . « فاء »

٢ ـ ٤/١٨

عزيزي رئيس تحرير المجلة « ألف »

بعد التحية الطيبة ، طيا قصيدة لصديقي الاستاذ « عبد ال » ، الذي حدثتك عنه في رسالتي السابقة ، عنوانها « صاد » (٢) . واسلم لاخيك : « فاء » .

٣ ـ ٤/١٨

عزيزي رئيس تحرير المجلة « باء » (٣)

بعد التحية ، مرفق لك القصة « رقم ٢ » لصديقنا الاستاذ « عبد ال » . أرجو نشرها في أقرب عدد . وشكرا . « فاء »

٤ ـ ٤/٢٠

اخي العزيز الاستاذ « فاء »

سلام وتحية وشكر جزيل . كنت أودعت لديكم نسخة من المسرحية « رقم ٦ » . ولما تفقدت المجموعة التي لدي وجدت انه ينقصها هذه المسرحية بالذات ، فاستبدلتها بهذه المسرحية « رقم ٧ » . فأرجو اعادة الاولى الي مشكورا ، ودمتم لعمكم « عبد ال » .

٥ ـ ٤/٢٥

عزيزي الاستاذ « عبد ال »

بعد التحية الخالصة، طيا المسرحية « رقم ٦ » ، حسب طلبك . بعثت بالقصة « رقم ١ » ، ثم بالقصيدة « صاد » ، الى المجلة « الف » ، واني أنتظر الجواب ، وسوف أعلمك . كما بعثت بالقصة « رقم ٢ » الى المجلة « باء » ، وسوف تنشر في القريب ، كما فهمت من صديقنا رئيسها هاتفيا . أرجو أن تعلمني عن وصول المسرحية « رقم ٦ » اليك ، للاطمئنان . وطيا صور من الرسائل التي بعثت بها الى المجلات بشانك . واسلم لاخيك : « فاء » .

٦ ـ ٤/٢٥

الاخ الاستاذ « فاء »

تحية طيبة .... واما قصيدة صديقك « عبد ال » ، فقد وصلتني أخيرا ، وسوف اخبرك عنها في رسالة مقبلة . ولك خالص المودة والتقدير . رئيس تحرير المجلة « ألف » .

٧ ـ ٤/٢٩

عزيزي رئيس تحرير المجلة « ألف »

بعد التحية الخالصة ، ... واني بانتظار رأيك في قصيدة صديقي الاستاذ « عبد ال » . ولكني أرسلت اليك ، في رسالة مؤرخة في ٤/١٥ ، قصة له عنوانها « رقم ١ » لم تحدثني عنها . أترى الرسالة لم تصلك ؟ واسلم لاخيك : « فاء » .

٨ ـ ٥/٢

عزيزي الاستاذ « عبد ال »

بعد التحية الخالصة ، لقد صدر العدد الجديد من المجلة « باء » ، وفيها قصتك « رقم ٢ » أرجو ان تطلع على العدد ، وهو في الاسواق . واسلم لاخيك : « فاء » .

٩ ـ ٥/٥

عزيزي الاستاذ « فاء » حفظه الله .

تحية سريعة وبعد . قرأت الساعة قصتي « رقم ٢ » منشورة في المجلة « باء » ، وقد فشت فيها الاخطاء المطبعية . حتى كاد الامر يحتاج الى جدول خطأ وصواب . والاغرب من ذلك ان جملا برمتها طارت او عدلت . وذكرت ما قلته لي مقترحا يومذاك ، من انك (ستاخذ بعض الحرية في تعديلها) .. لكنها بهذا التعديل فقدت رونقها ، واصبحت موقعة بالوان ناشزة .

اخي : لقد كتبت الى المجلة أنبهها الى الاخطاء في قصتي وقصة

غيري ، مما يشوه سمعة الكاتب والمجلة . كما ارسلت صورة ثانية من قصتي « رقم ٢ » الى المجلة « الف » ، رجاء استبدالها بالنسخة التي ارسلتها انت معدلة .. مع كتاب اعتذر فيه ، راغبا ان ابدو كما انا للناقد في المستقبل ، دون مكياج ولا رتوش .

فاذا كنت قد فعلت في بقية قصصي فعلتك (التي آلام انا عليها) بتعديل ولو طفيف ، فارجو ان تتفضل بابلاغي عناوين المجلات التي ارسلتها اليها ، عدا المجلتين « الف » و « باء » ، لابادر الى تزويدهم بنسخ جديدة اصيلة ، لا يد لانسان فيها غير يدي ، ولو كانت يد (ميكل آنج) .

والتعديل الذي اتفقنا عليه ، او المفروض اننا اتفقنا عليه ، هو تصحيح خطأ لم الاحظه ، او توضيح فكرة سها بالي عنها ، اما شطب جمل برمتها واستبدالها بغيرها ، فقد اوافقك عليه ، اذا وافقتك على ابدال انفي بانف آخر ولو اقنى ، او عين بعين ولو دعجاء . والقصة صفحة صادقة من النفس الانسانية بخيرها وشرها ، يحرص الانسان عليها حرصه على ذاتيته . وللناقد بعد ذلك ان يحكم . ولطالما نقد شعراء ، فلم يلتفتوا الى قول انسان ، واثبتوا في دواوينهم وجهة نظرهم بخطئها وصوابها ، لانها هي وحدها ، لا وجهة نظر النقاد ، المعبرة عن شخصهم وفكرهم ووجودهم ، مع الاعتراف بحسن نية النقاد .. وكم قال ناقد : لو قيل كذا لكان احسن ، ولو زيد او شطب كذا لكان يستحسن .

وبالمناسبة ، فقد قرات روايتك « ظ ... » ، ولي عليها مآخذ ، وقد اكتب عنها ناقدا او مهاجما . وقد تعطيني بعض الحق .. لكنك لن تبيح ان تثبت تعديلي في الطبعات الجديدة .. وستقول : لكل وجهة نظره ، واسلوبه ، وطريقته في الحياة والادب والتعبير ..

سوف اعتب عليك كثيرا اذا لم تبلغني ما ارسلته من قصصي المعدلة الى المجلات ، ودمت لاخيك الذي يحبك على علاتك واخطائك .. وتعديلاتك ..

ملاحظة : وصلتني المسرحية « رقم ٦ » وشكرا . ملاحظة هامة : ارسل اذا شئت الطبعة الاولى من روايتك « ظ ... » لملاقاتها بالنقد الذي اكتبه . « عبد ال » .

١٠ – ٥/١٠

اخي الاستاذ « عبد ال »

تحية المودة والاعجاب ، لم اقع ، في رسالتك المؤرخة في ٥/٥ ، على روحك المرحة التي أعرف . ولكني وجدتك تخاطبني على نحو ما يفعل المعلم بتلميذه مقرعا . وقد تقبلت ذلك منك برحابة صدر . بقي ان تسمح للتلميذ – القابع في اهابي – ان يخاطبك بجراة على نحو ما تلقى منك من التقريع .

تقول ان « جملا برمتها طارت او عدلت » في القصة ! أهي خمسون جملة ؟ انهما اثنتان ! وهل يدخل ذلك في باب « التعديل » الذي تحسب اني « اخذت بعض الحرية فيه » ؟ والطريف سماعي منك أن قصتك « رقم ٢ » قد « فقدت بهذا التعديل رونقها واصبحت موقعة بالوان ناشزة » !

يا اخي ، انهما جملتان – ان لم تخني الذاكرة – عدلتهما قصد توضيح ما تحسب انه واضح للقارىء وما هو بواضح . استشرتك وانا امامك اقرأ القصة ، فوافقت . فما هذا الرونق الذي يذهب به تعديل جملتين او ثلاث ؟ وليست القضية ، من بعد ، بحاجة الى ان نوزع على المجلات « تعميما » لوقف نشر ما بعثت به اليها من نتاجك القصصي والمسرحي ريثما تصلها منك نسخ « جديدة اصيلة » غير مزيفة !

أتعتقد ، يا صاحبي ، انك تكتب الدرر الغوالي في هذه الاقاصيص ؟ ان شكسبير الخالد ، كانت مسرحياته تحذف له منها المشاهد والمواقف ، ولم نسمع انه ثار ثورتك . وتشيخوف العظيم كان يكتب الاقصوصة ، ثم يظل يحذف منها حتى تغدو بين يديه في حدود النصف او اقل ، لولا ان يسارع اليه صديق فينتشلها منه قبل ان ياتي عليها التعديل . ان المسالة أبسط مما تتصور ، يا « أديب ... » (٤) . ولكن هذا التشدد ، تشددك ، نلقاه عادة عند من لم يخرج ببنات الهامه الى الجمهور ، فهو يعيش معها في وحدة ، عاما بعد عام ، ويظل يقرؤها ويقرؤها حتى يحفظها عن ظهر قلب ، ثم يحسب ان حذف اشارة تعجب منها عمل فيه اخلال وتشويه وتزييف ، كقطع رأس تمثال من ابداع رودان !

لقد حذفت لي مجلة « .. » مقطعا كاملا من مقال نشرته لي في عدد اول ايار الحالي ، هاك نصه : « .. .. .. » (٥) ، وما تأثرت ، علم الله ، من هذا الحذف الا قليلا جدا . الا ان الاصالة تعوزني وتفيض عندك ؟ قد . ولكننا ، يا أخي ، نكتب كثيرا ، وكثيرا جدا ، فأي ضير عظيم في أن يحذف سطر مما كتبنا ، او جملة ، او مقطع لاعتبارات وجيهة تملى ؟ لن تقوم قيامتي وتقعد . ولن أظن ان الرونق قد فقد ، وان النص قد اصبح موقعا بالالوان الناشزة ! روحي ليست مشدودة الى المعنى الذي تضمنته هذه الجملة الصغيرة ، بل الى ما هو اسمى وأشمل وأعم . انفتح على العالم ، يا أديب « أشجار الدلب » (٦) .

اطمئن ، يا صاحبي ، قصصك التي عندي لم ارسلها الى مجلة . والقصة «رقم ١» ربما فقدت في البريد . أنا في سبيلي الى أن ارد ما عندي اليك ، لولا خشيتي ان تضيع في البريد . فهي الان وديعة عندي ، الى يوم يحملها اليك مسافر .

لا تكتب عن كتابي « ظ .. » . ان ممن ودوا الكتابة عنه ، يوما ، صديق اديب ينادي دائما باخذه بالصراحة المطلقة في نقده . قرأ الكتاب في القاهرة ، وطلب مني – مثلك – نسخة من طبعته الاولى ليقارن ، ثم نشر مقاله الصريح في مجلة بيروتية ، فرددت عليه في العدد التالي بمثل صراحته ، فلم يحتمل حريتي في الرد ، على احتمالي منه حريته في النقد ، وقاطعني الى الابد . الكاتب هو « .... » ، والنقد وردي عليه في مجلة « .... » : عدد اذار وعدد نيسان ١٩٦٥ . انك ان احتملت رسالتي هذه ، فانت محتمل ردي على نقدك الصريح القادم ، لا ضير .

ليس في قلبي ، بعد الان ، شيء . فقد افاض قلمي ، فتخلص قلبي .

أتشكرني لانني عنيت بقصتين من قصصك وبقصيدة ، وكتبت بشانها رسائل الى المجلات واليك ، بلغ عددها حتى الان خمسا او ستا ، وهي ذي السابعة ، ما أطولها ! لا شكر على واجب .

واسلم لاخيك : المخلص « فاء » .

١١ – ٥/١١

اخي الفاضل « فاء »

سلام وبعد . فهذا ما عن لي ان اكتبه مدحا وقدحا . وقد رأيت

---

(١) سبق ان بينت ان المجلة « الف » تصدر في عاصمة عربية مجاورة . (٢) ان « عبد ال » الاديب القاص ، ينظم الشعر ايضا . (٣) والمجلة « باء » تصدر في العاصمة السورية . (٤) المضاف اليه الذي حرصت على حذفه ، هو اسم البلدة التي ينتسب اليها « عبد ال » . (٥) يتألف المقطع من ثلاث وثلاثين كلمة . (٦) بهذه الاشجار ، يقال ان بلدة «عبد ال» – كانت تعرف ، في الماضي . (٧) واضح ان هذه الرسالة صدرت عن « عبد ال » قبل ان تصل اليه رسالة « فاء » المحررة في اليوم السابق . وأما ما أشار اليه « عبد ال » في هذه الرسالة فهو المقال النقدي الذي كتبه عن رواية صديقه المسماة « ظ ... » . (٨) الدكتور « م... » هو قريب « فاء » وصديق « عبد ال » في بلدته ، وستعود الاشارة اليه .

ان اعرضه عليكم . فان شئتم نشرتموه او كتمتموه . ولكم الـرأي اولا وآخرا (٧) .

الدكتور « م ... » يسلم عليكم (٨) . مع الاحترام الجزيـل من اخيكم : « عبد ال » .

١٢ – ٥/١٤

عزيزي الاستاذ « عبد ال »

بعد التحية الخالصة ، فقد تلقيت رسالتك الاخيرة المؤرخة في ١١ – ٥ وما ضمت من مقالك النقدي الطويل عن قصتي المتواضعـة « ظ .... » . وقد قرأته مرة ومرة .. ولكن ، هل تحسب ، يـا صديقي ، ان ما جاء فيه يذهب فـي النقد ؟ افلا يعني النقد ، فـي مفهومك ، دراسة الاثر المنقود من وجوهه : الايجابية والسلبية ؟ ثم التعبير عن ذلك كله بالاسلوب الذي لا يؤذي المشاعر ؟

فما رأيك ، بالله، بامثال هذه العبارات التي وردت في «نقدك» : القصة « قد خلت من اية لمحة فنية ، او تحليل نفسي . فليسـت تحمل الى نفس الرجل غير القرف ... » ؟ « وهكذا يشيع السخف والتناقض في شخصية البطل » ؟ بل انك لتسمي البطل « رعديـد القصة » ، وتلخص بعض مواقفه وتقول : «ويتوالى السخف» .. أليس في « قاموسك النقدي » ، يا اخي ، غير هذه العبارات ؟؟

وانت لا ترى في اسلوبي غير « اخطاء لغوية شائعة في لبنان »، وتورد الامثلة .. وترى « أخطاء كثيرة في التعبير » ، وتسوق الشواهد، وتقول : « ولو شئت التتبع لوقفت على كثير ، فالاخطاء أكثر من ان يضمها كتاب » ... كتاب فيه « عبارات اراد المؤلف ان يتفاصـح بها ، فاصابت اسلوبه الركة » ..

وانك لترى في العاطفة التي تمثلها الكتاب مـن « التكـرار » و « الابتذال » ما جعل القصة « ادبا مكشوفا هو الى الاسـفاف أقرب » . وتسل جملا من هنا وهناك ، وتدس بعضها في بعض ، مقدما اياها بقولك : ولا بأس ان نستعرض هنا « لمحات مخجلة » ممـا كـان بين البطل والبطلة .. ان صنيعك هذا ، يا صاحبي ، « لو صنـع بالقرآن الكريم لعاد باطلا كله » كما قال الزيات ، من واحد وعشرين عاما ، في رده على من نقد كتابه « دفاع عن البلاغة » في مجلـة « الكتاب » . وانت حتى في استشهادك بالنصوص التي سلت ، قد حرفتها تحريفا ابعدها عن بعض مرادها . فهل تجوز هذه « الامانة » ، في مفهومك للنقد ، يا عزيزي ؟

اني لن اقف عند رأي من رأى من النقاد ان في هذه القصة ما فيها من معاني الوفاء الذي هو « من مكارم اخلاق العرب في جاهليتهم واسلامهم » ، او عند من زعم منهم انها قصة « موضوعية وهادفة » الى الحد الذي تمنى معه « لشبابنا العربي ان يقبل على قراءتها ويتفهم جيدا المغزى الذي رمت اليه ، ومن ثم يقتدي ببطلها » ، او عند رأي ذلك الشاعر الذي قال في لغتها : « وان اللغة العربية السليمـة ، التي يعد المؤلف من خيرة المحافظين عليها ، تعطي القصة جوا عاليـا من جمال التعبير ، وتضعها في مصاف الاعمال ذات الوزن البلاغي » ... لن اقف عند هذه الاراء وامثالها طويلا ، لاقارن بينها وبين رأيك القاسي ، فانا أعلم ان الاذواق والاراء تختلف فيما بينها – احيانا – اختلاف من يؤمن بالله مع من يؤمن بالمادة . ولكني وددت، يا صديقي، جدا لو انك اتسمت في مقالك بالانصاف – ولـو بقـدر منه يسير – يحبب اليك ان تذكر المحاسن الى ذكرك ما اعتقدت انه معايب ، وان تكون على درجة – ولو صغيرة – من لطف التعبير فتنزه قلمك الجميل عن الفاظ لا تحمل روح النقد بقدر حملانها روح الرغبة في الاذية .. ولا عجب ، فقد نوهت في رسالتك الماضية بانك ستكتب عن الكتاب « ناقدا او مهاجما » ! فاية عاطفة « خيـرة » تنطوي عليهـا روحـك الطيبة ، يا صاحبي ؟

تقول في رسالتك الاخيرة : « فهذا ما عن لي ان اكتبه مدحـا وقدحا » (ولكني لم اعثر فيه على المدح !) « وقد رأيت ان اعرضه عليكم . فان شئتم نشرتموه او كتمتموه » .. يا اخي ، اني واللـه لفي حيرة : ان طويته في درجي ، ما امنت ان يذهب لسانك فيعلن بين اخوانك : حقا انه لمؤلف مغرور ، ننقده « بتجرد » ، فيحسب نقدنا هجاء !... ولكن فكر معي : اذا انا وجهت مقالك للنشر ، فاية مجلة ترضى ان تقدم لقرائها كلاما يتزيا بزي النقد ، ومـا هو فـي حقيقته الواضحة الا ... ماذا اقول ؟ أخجل من ذكرها ! لادعها فـي خاطري ، حتى لا أوذي مشاعرك .

على انني سأحاول نشره ، ليرى الناس ويحكموا . واسلم لاخيك الذي يحبك : « فاء »

١٣ – ٥/١٤

اخي « فاء »

سلام عليك وبعد . فقد افقت اليوم متغير المزاج ، بحاجة الـى ما يسليني .. حتى وردني كتابك (٩) الذي اضحكني بنكاته الظريفة، وكان في ذلك شفائي .

وكنت ارجو ان يروح عن افكارك مـا كتبته لـك . لكنه اثارك لسبب لا اعرفه . أأنا الذي قمت منك مقام المعلم حين رجوتك ان تدعني اظهر للناقد كما انا ؟ ام انت المعلم الذي صحح لي (مواضيعي الانشائية) شطبا وتعديلا ؟

اما باقي ما ورد في رسالتك العزيزة ، فارى ان تحيله الـى صديقك « ح ... » (١٠) ، فهو به احق . اذ انني لم اخاطبك فـي يوم بمثل لهجتك . ولو كنت اعرفك غضوبا متسرعا الى هـذا الحد ، لسلكت معك مسلك الحيطة والملاطفة . وقد حمدت الله على اني بعيد عنك .. والا كنت أكلتني (بلا ملح) .. يا مليح ؟ على ان لـي

(٩) رسالة « عبد ال » هذه هي ، بالاحرى ، رد على رسالة « فاء » التي أخذت في تسلسل الرسائل هنا الرقم (١٠) . (١٠) بين « ح...» هذا وبين « فاء » ، خصومة ادبية حادة ذات طابع شخصي . (١١) يقصد « عبد ال » بهذه العبارة ، التي وضعها بين قوسين ، رواية « فاء » التي سميناها « ظ ... » . (١٢) احـد الخلفاء الامويين . (١٣) كاتب قصصي وتمثيلي سوري معروف . (١٤) المضاف اليه هـو اسم بلدة « عبد ال » . (١٥) ليس من بد ، وقد تكررت الاشارة الى « التعديل » مثار هذا الخلاف ، من ان أورد النص فـي اصله ، ثم في حالته بعد التعديل:

يقول راوي القصة ، معلم مدرسة القرية ، بعدما أصغى هـو وتلامذته الى موضوع الانشاء يتلوه التلميذ ابن الراعي في قاعة الدرس:

« ... فنزلت على رأي المجموع ، وتنكرت لعلم النحو ! رحم الله واضعه ! وضلعت مع الاكثرية ! أليس دستورنا ديمقراطيا يأخذ برأي الاكثرية ؟ والى اليوم لم أندم على التصفيق لذلك الراعي الذي كـان بسبب درجته العلمية المتأخرة ، آخر من يحق له نوال الجائزة . ولكن ألم أترك للطلاب حق التصويت وحرية الاختيار ؟ لقد جاءت هـذه الحرية في محلها . فلننتظر نهاية موضوعه .

وفي هذه الاثناء كانت كفاي لا تزالان تشاركان على غير انتباه تلك الاكف الصغيرة التي حملت بتصفيقها الجائزة الى الراعي الصغير .. » ا هـ .

النص المعدل :

« ... فنزلت على رأي المجموع ، وتنكرت لعلم النحو ! رحـم الله واضعه ! وصفقت لذلك الراعي الذي كان بسبب درجته العلمية المتأخرة ، اخر من يحق له نوال الجائزة .

وفي هذه الاثناء ، كانت الاكف الصغيرة تُصفق ، وقـد حملت بتصفيقها الجائزة الى الراعي الصغير ... » ا هـ .

ملاحظتين : الاولى جادة ، والثانية هازلة .

اما الاولى ، فقد نقد توفيق الحكيم في روايته « عودة الروح » ، ولفت نظره احيانا الى اخطاء نحوية او انشائية ، ثم طبعت الرواية مرات ، فلم يشأ ان يصحح اخطاءه ، مع ان بعض الناس يعيدون طبع آثارهم (طبعة جديدة منقحة) (١١) ، او يستدركون على الاقل اخطاء عفوية . ذلك ان الحكيم رغب في ان يظهر للاجيال بخطئه وصوابه . وكذلك لفت شكيب ارسلان نظر احمد شوقي الى قوله :

فلا الاذان اذان في منارتـــه   اذا تعـــالــى ، ولا الاذان اذان

واقترح ان يكون الشطر الثاني هكذا :

. . . .   وقد تعالى ، والاذان آذان

جاعلا (الحالية) مكان (الشرطية) .. وطبعت « الشوقيات » دون تعديل الصديق .

اما المتنبي ، فقد قابل في مصر (سيبويه المصري) فانتقد قوله :

ومن نكد الدنيا على الحران يرى   عدوا له ما من صداقته بـــد

وقال : لا تأتلف (الصداقة) و (العداوة) بحال ، واقترح ان يكون الشطر الثاني هكذا :

. . . .   عدوا له مـا من (مداراته) بـد

فابتسم المتنبي وانصرف .. ولم يشأ ان يعدل في ديوانه على ضوء ملاحظة قد يكون لها وزنها ، وفضل ان تقرأه الاجيال كما هو .

ومثلها كثير .. وهذا طه حسين ، حين عرضت عليـــه اصول « شهرزاد » لتوفيق الحكيم ، تطوع لكتابة مقدمة لها . لكنه بعد ايام فوجيء « بشهرزاد » مطبوعة ، موزعة على المكتبات .. الامر الـــذي اثار طه حسين ، وعده استهانة بما ندب له نفسه متبرعا ، وجـرى بينهما عتاب يومذاك . وكان مما اعتذر به الحكيم ، انه لا يرغب فـي اية اضافة على مسرحيته ، ولو كانت مقدمة ، مفضلا الا يحول بينـه وبين القارىء احد ، فيفهمه الجيل من كتابه لا من المقدمة .

اما استشهادك بشكسبير ، فان مـــا يكتبه مرتبط بالمسرح . وللاخراج شروط ، وللديكور ظروف . وقد اضطررت يوما ان اكتب سيرة « ع ... » (١٢) مرتين ، وان اختصرها من ثلاثين حلقة الـى عشرين ، نزولا عند ملاحظات المخرج وامكانية العمـــل . والمسرحية مفروض فيها انها عرضة للتعديل والحذف والاضافة . وطالما اعيدت لصديقنا « هـ ... » (١٣) مسرحياته بقصد تنسيقها او اختصار بعض شخصياتها او تطويلها او تقصيرها ، تمشيا مع الوقت المحدد ، وترك ذلك للمؤلف لا للمخرج او غيره من كتاب المسرحيات ولو كان عبقري زمانه .

وحين يكتب الكاتب يغوص على معانيه في اللاشعور ، ولكل كاتب مغاصه . ولهذا ندر ان يتفق كاتبان . فالمشاركة اذا جازت في ايـة مهنة فانها في الكتابة لا تجوز . واذا امكنت في التآليف الادبيـــة والنقدية ، فانها مستحيلة في الشعر والقصة مثلا .. ممـــا يلامس ناحية فنية هي الصق بنفس صاحبها وادل عليه .

ومما يعاب على الكاتب ان يستعين بغيره .. والاعتداد بالرأي محمود ولو صدر (عمن لم يخرج بينات افكاره الى الجمهور ...) ، اليس ذلك نزعة استقلالية وانفة من الاستعارة .! حتى التلميذ ، يثور احيانا على معلمه ، زاعما ان تصحيحه في غير موضعه ، او ان معلمه لم يدرك ما رمى اليه .. فهل كثير اذا رجوتك الا تصحح لي ؟

اما حكمك بان في عباراتي غموضا او اضطرابا ، او اي عيـب آخر ، فهو حكم محترم في عرف النقد . ولك ان تنقد الاثر لاحقا .. دون ان تصحح مسبقا ، مع اعترافي بغيرتك واخلاصك ، وحسن نيتك في تصحيح عبارة من منحته لقب « اديب ... » (١٤) ، فبدلت ياسه املا ، وعبوسه ابتساما .. ولهذا ولكوني اعدك صديقي ، كنت اكلمك وانقدك دوما بصراحة ودون مواربة .. والا كان علي ان اتخـذ شعاري منك حكمة المتنبي المعدلة ... (عدوا له ما من مداراته بـــد) .. فللعدو المداراة ، ولكن للصديق الصراحة ، وفتح القلب دون حـــذر من اساءة الظن او الهجوم المباغت ..

هذه هي الملاحظة الجادة . اما الهازلة ، فهـي حـــول قولك : (أتعتقد يا صاحبي انك تكتب الدرر الغوالي ..) ، ورغم اني لـــم ادع هذا ولا اليه قصدت في رفض التعديل ، ولم اشر الى ذلك في يوم امام اي انسان .. وكنت لزهدي فيها مدى سنين ، وهوانها علي ، مهملا نشرها .. لو لم تستنهضني انت الى ذلك مشكورا ... رغـــم هذا كله فاني ارد عليك مازحا لا جادا : (لكني يا صاحبي لا احب ان ارصع اقاصيصي بدرر غوال ليست لي .. ولو كانت تكرما من صديق عزيز تطوع بتعديلها وتزيينها لانظار الجمهور) . (١٥)

والان دعنا من هذا العتاب .. (بلاش زعل) .. ولناخذ طريـق المناصحة كما هو الواجب علينا . وردني من (السعودية) عرض لطبع بعض اقاصيصي على حسابهم . فما رأيك ، وما هي احسن الشروط ملاءمة وانصافا ؟ فانا اعرفك من جهابذة هـــذا الموضوع . وسوف اطلعك على العقد في حينه !

وأودعك اخيرا بهذه النكتة : سالني الدكتور « م ... » : ماذا احضرت لنا من السعودية ؟ فاجبته : هذا المسواك .. وانا لا أبخل به على كل من يود ان تطيب نكهة فمه ! واسلم لـــمن يحبك رغـــم تعديلاتك وغضباتك ، وهجماتك .. اخوك « عبد الـ »

١٤ – ٥/٢٤

اخي « فاء »

سلام وبعد : تلقيت رسالتك الاخيرة ، وفيها ترد على نقـدي (١٦) وقد كنت ارسلت اليك بعد كلمة النقد رسالة اخرى ، لكنك لم تشر اليها ، فهل وصلت اليك ، واهملت الجواب عليها .؟ ام انهــا راسبة في قاع صندوق البريد المثبت على جدار حارتنا .؟!

وقد اعدت تلاوة رسالتك ، واستعدت ما كان بيني وبينك مـن عتاب ، وحاولت ان افهم سببه ، فلم اجد لـه سببا غيــر اختلاف نظرتينا الى فن القصة . فهذا الاختلاف هو الذي حملني على الاعتذار من تعديلاتك لقصصي ، وهو الذي حملك على معاتبتي مرة ومرة .. وربما اوغلت في الظن وفسرت موقفي بالتحامل ، او جهـــل الفن او غيـر ذلك .

ان الكاتب يا « فاء » كالوالد ، يزعم غريزيا انـــه خلف فنـا جميلا ، او ابنا صالحا ، وله العذر . فالاثر كالولد ، عزيز معـــزة الروح لانه جزء من النفس . لكن الاثر او الولد متى صدرا للمجتمع ، اصبحا ملك المجتمع . فهو الذي يحكم لهما او عليهما لا الوالـد ولا صاحب الاثر .. يحكم عليهما بحرية حكما قاسيا او هينا ، حكمـا ادبيا او قضائيا دون ان يحسب حسابا لتأثر الوالـد او لمزاجه او لعطفه على ما كتب او خلف . وللوالد ان (يستأنف) و (يميز) ، ويقدم شتى (الدفوع) .. لكن هذا لا يمنع من ان يشدد الحكـم احيانا .

وانت يا عزيزي تطلب الي (ان اكون اقل قسوة ، في اسلوب لا يؤذي المشاعر ، وان اتسم بالانصاف ، واكون على درجة من لطف

---

(١٦) رسالة « عبد الـ » هذه ، هي رد على الرسالة الرقم (١٣).
(١٧) ما حذفته هنا نص من نحو مائة كلمة ، هو تلخيص لرأي «عبد الـ» في رواية « ظ ... » مما يعرف بالرواية ومؤلفها . (١٨) « م. ن.. » كاتب عربي شهير . (١٩) بعد التحقيق تبين أن الكاتب العربي الشهير قد قال في نقده لرواية « ظ ... » اشياء اخرى غير هذا الذي نقل الى « عبد الـ » في غير دقة . والنقـــد وتعليق « فـــاء » عليـه ، منشوران في مجلة « الاديب » في عدد من اعداد ١٩٦٥ . (٢٠) يقصد الرسالة الرقم (١٠) . (٢١) و (٢٢) المحذوف جملتان مـــن ٣٥ كلمـــة تعرفان بالرواية .

عـودة

ودعت برلين اعراسا واحبابا — واجتزت عند ضواحي الشام ابوابا
خلفت دنيا من الافراح ، عامرة — منها شربت من الاشواق اكوابا
طلق عنان الهوى ، يا ليت اجنحتي — عادت تزور مع الانسام اصحابا
سبعا مشيت بروض طاب موسمه — كانت سنينا كساها السود اثوابا
يا لائمي لا تكن في الحكم منتقما — هلا سمعت من العشاق اسبابا
تاهت قوافلهم في قفر بادية — يا سائق الظعن هل ابصرت اعرابا
تسعى الى نارهم في الليل قافلة — الفت على الدرب آمالا واسلابا !

برلين — ابراهيم شعيب

التعبير ، فانزه قلمي عن الفاظ تحمل روح الرغبة في الاذية .) .

لقد اتهمت اثرك الفني بالاخطاء ، والتفاصح ، وانه قد خلا من لمحة فنية ، وان البطل لم يكن بطلا في ال .... (١٧) ، اذا كنت يا عزيزي قد رسمت شخصية بطلك هكذا كما يرسم تيمور شخصيات مريضة في كثير من قصصه ، فقد نحتمل ذلك ونقول انك نجحت الى حد ما في تصوير « مريض » تصيبه الوهلة امام مغريات .. على ان يرافق ذلك تحليل لنفسية ذلك الخائف الوجل طول الوقت ..

ولقد احكى لي احد الاصدقاء ، وكنا نتذاكر ادبك ، ان الاستاذ « م. ن ... » (١٨) نقد قصتك ، مشيرا الى ان العربي لا يجبن ولا ينهزم امام الجمال ، .. هذا مجمل ما نقله الي الصديق ، والعهدة عليه .. فهل لك ان تدركني مشكورا بصورة عن نقده ؟ (١٩) .

وحين وردني كتابك وددت لو انك لم تقف عند تأثر المشاعر ، فترد علي منكرا اسس نقدي ، مستشهدا ، كما فعلت انا ، باقوال تدحض مآخذي وتخطئني ، وتثبت لي ان ما زعمته خطأ ، كان صوابا .. او تتحداني ان اورد غير ما اوردته ، حين زعمت لك ان الاخطاء اكثر من ان يضمها كتاب .. (واسرع هنا فأعترف بخطأ وقعت فيه ، حين اوردت كلمة « ينكرها » ، فقد كانت في قائمة « التفاصح » ، فند القلم ونقلها الى قائمة « الاخطاء » .. فهي صحيحة ، لكنها افصح من ان يحتملها اسلوب قصة تهدف الى التحليل النفسي لا الى الاسلوب الانشائي المنفلوطي الذي يروج ببهرجه في اوساط المبتدئين.)
.. ثم انك تتهمني بالتحريف ، فهلا استشهدت على ذلك بمثل .!

لكن من يعاتب من اجل عبارة يعدها جارحة ، عليه ان ينزه قلمه عن امثالها .. ألم تكتب لي في رسالة سابقة (٢٠) : « أتعتقد يا صاحبي انك تأتي في اقاصيصك بالدرر الغوالي .. » ، ورغم ان هذه مسبة صريحة واتهام لي بالجهل والغرور .. فاني ضحكت لها وعددتها نكتة ، وعلقت عليها تعليقا هازلا في رسالتي التي لم تجبني عليها .. وقدرت تأثرك الذي عرفت اخيرا سببه .

ثم انك لم تنزه قلمك ايضا في رسالتك الاخيرة ، فاتهمتني بالتحريف وبسوء الامانة في مفهومي النقدي ، وبقلة الانصاف ، والرغبة في الاذية ..

وكذلك تنكر اني عرضت لنواحي ايجابية ، ناسيا اني امتدحت القصة .. فقد ذكرت « ان احداثها اقرب ما تكون الى الموضوع الشعري ، والمؤلف يشعر بهذا فيحاول ان يصوغها في تعابير جميلة رقيقة ، تفوح عطرا وتشف عن مجازات لطيفة ندية تنضح بالعاطفة والوجدان الشاعر . والمونولوج الداخلي فيها قوي مؤثر صادق بأحاسيسه » (وأوردت امثلة على ذلك) .

واعود فاذكرك بأن اسلوب القصة غير هذا . والحكيم وتيمور وغيرهما لو شاءوا لكتبوا اسلوبا فخما كأسلوب الرافعي والسكندري والمويلحي .. لكن آثارهم لا تكون حينذاك قصصا تحليلية ، ولكن شيئا اخر لا علاقة له بالقصة . اما اذا كنت تتأثر يا « فاء » اسلوب الزيات في قصصه التي أحكم اخراجها في تعابير جميلة رفافة ، فذلك له ، وسيحكم الزمن له او عليه .. ومع هذا ، فالعبقرية لا تقلد ..

وأظن ان السبب بتقصيرك في هذه الرواية عن الشأو الذي تقدره لها ، هو ان التجربة ليست لك ولكن لغيرك . فانت تمط القصة دون فكرة جديدة ، او موقف مؤثر ، او مفاجأة رائعة .. (٢١)، وتمتلىء الصفحات الطويلة باسلوب الوصافين الذي يدور حول العيون والاذرع والشفاه .! يا اخي حلل لنا النفسية العفيفة او المذعورة ، عرفنا من هو البطل . ولكن كيف تعرفنا البطل ، وهو لا يعرف نفسه ، فيودع القارىء في نهاية القصة بقوله : « أكان عفة مني ام وفاء ، او خشية ، ام تهيبا .. لا ادري .. لا ادري .. » ، فمن يدري اذن ؟ أليس هذا ما اوردته انت في قصتك .. ام تقولته انا عليك .. ام نقلته بتشويه ؟.... (٢٢)

واخيرا فاني فهمت موقفك وقدرت مشاعرك ، ولست بالذي يتهجم على صديقه ، لكن الاثر غير الصديق . وقد حاولت مرة ان اكون صريحا فرميتني بقلة الانصاف .. ولن اعود الى مثلها . لكن ذلك لا يمنعك ولا يمنع غيرك من ان ينقدني ويهاجمني اذا شاء ذلك . وثق اني لن اقابله بغير ابتسامة شكر وتقدير لموقفه وثقافته ، دون ان اتأثر ، فأحاول الدفاع متحمسا عن عمل جهدت في اخراجه ، واودعته نفسي ، فجاء على غير ما اراد له النقاد .. ولكل درجة من الفهم قد تلمو فتتهم بالسخف او بالغموض .. بل اني ساحاول حينذاك الاستفادة من مفاهيم النقاد ، مفترضا ولو مرة واحدة في حياتي بانهم على صواب ... وعساي ان اكون حينذاك منصفا في نظرك على الاقل ..

هات الان بوسه من دقنك الظريفة .. وحلاوة الصلح علي .. اذ لا يسعني غير هذا وأمري لله .. واسلم للذي يحبك رغم تعديلاتك واتهاماتك ومعاتبتك . اخوك « عبد ال » .

حلب — نادر ابو السعود السباعي



١ ـ بيـن الاعـاصيـر

ديوان شعر ـ محمد الاسمر ـ ٢٣٢ صفحة ـ منشورات دار الفكر العربي بالقاهرة ـ مطابع فن الطباعة بالقاهرة

عرفت الادب عن طريق اربعة : العقاد ، والاسمر ، والزين ، والقاياتي والتقيت بهم جميعا في عصر واحد ، وفي سنين متقاربة ، تداخل بعضها بحكم الاتصالات الادبية ، وتفرق بعضها الاخر باحكام قد يكون ايسرها ، بعد الامكنة ، والعيش داخل اطار محدود ، وفي نزل متواضع، يشافه سور القاهرة القديم ، كما رسم الشيخ القاياتي لحياته ، او رسمت الاقدار ... !!

اما العقاد ، فقد كانت اتصالاته ومجالسه في الصحف التي عمل بها ، او النوادي التي اتخذها ملتقى لاصدقائه وتلاميذه ، اعرف من ان يجهلها اديب ، او يسأل عنها زائر ، يروم الادب ، ويبغي اللقيا بالعلماء ...

اما الاسمر ، فقد كان يعمل الى ان انتقل الى جوار الله ، منذ اثنتي عشرة سنة بمكتبة الازهر : يذهب اليها ، وان كان لا يعنيه من امرها ، الا العكوف على مطالعاته او استيحاء ربة الشعر في ركن منعزل ، اتخذه لنفسه داخل « المكتبة » ، حتى كان يغيب وهو حاضر عن المريدين والمحبين ، برجاءاته التي يبديها لمن يعمل معه .. فاذا جاء المساء ، سعى الى نادي « الحلمية » وهو يوم ذلك ، يعمر بالزين والهراوي والقاياتي ، وزكي مبارك ، وصفوة مختارة من الشعراء والادباء ، الذين آثروا هذا المنتدى باللقاء ، ووسموه دون غيره بهذا الطابع الذي ظل يلازمه ، حتى بعد ان تهدمت بناياته ، واستعمل استعمالا على غير ما عرف به ، او اتخذ من اجله ...

كان ايثاري .. « الاسمر » رحمه الله بالملازمة والصحبة ، دون سائر الرواد ، لاصلاحه ما اكتب ، ومعالجته السليمة وتوجيهه السديد ، واصطحابه لي في كل زياراته لندوة الراحل الفيلسوف الشيخ مصطفى عبد الرازق ، واجلاسه لي حيث يطيب له ان يجلس، واخذ رأيي ، وانا خجل ، في كثير من البحوث التي يتناولها رواد هذا البيت الكبير ، حتى ان الشيخ الفيلسوف ، قد كان يدفع الي، وانا اهم بمغادرة المكان ، بكتاب للنظر فيه ، وتسجيل رأيي، للاسترشاد، كما كان يزعم ، رحمه الله ... !!

على ان اللمسة الاخيرة التي كنت اخرج منها بعد كل بحث ، تلك المناقشة التوجيهية وسط هذا العباب من الاساتذة الذين كانوا يصتون لتوجيه الاسئلة ويرضون بالحكم الذي كان يصدره الراحل الفيلسوف .

ويعلم الله ، انه كانت تنتابني اعراض « الزوغان » بعد تلك الجلسات التي كانت اشبه باختبار قاس ، يفرض علي ، ولا استطيع ازاءه التعلة ، او الاعتذار ، وبخاصة اذا كنت قد اخذت نفسي بان اكون في ركاب هؤلاء الاساتذة ، وعلى ملتقى انظارهم في كل ما اقرأ او اكتب ، او اشارك ، وما كان « الاسمر » الشيخ ، يضن علي بالرأي او بالكتاب ، حتى كانت المكتبة « الرازقية » تحت يدي في كل وقت ، حضر صاحب الدار ، او ذهب الى درسه بالجامعة ...

غير ان الايام قد مضت على غير ما اود ، ويحب هؤلاء الشيوخ .. فقد تفرق الجمع ، وتشتت الشمل ، ولم يعد احدهم يبحث عن مجمع يضع شتيتهم ، ويجمع متفرقهم ، وان كنت قد آثرت الا انفك عن الملازمة الحبيبة للشيخ الاسمر ، وسماع ما ينظمه او يرسله من اراء ، ناقدا حينا ، ومثنيا حينا اخر ، وهو حفي بهذه المشاركة ، فخور بهذا التوجيه الذي اثمر ، تياه بنقدي ، غضوب ان انا انصرفت عنه ، او تفاضيت وتغافلت قصيده الذي كان يحلو له ترداده قبل دفعه الى المطبعة ، ومطالعات الادباء لـه !!!

ولقد علمني رحمه الله ، المشاركة على اشدها ، ورسم لي طريقها، وبين لي فائدتها الى اخر يوم في حياته وهو يعد ديوانه : « بين الاعاصير » الذي تركه من بعده ، دون ان يراه منشورا ، او يمتع ناظريه به وهو يأخذ مكانه في قلوب الصحاب ...

كانت المشاركة الادبية في رأي الاسمر ، طرح الموضوع ، او تناول الفكرة ، والالمام بكل ما يدور ، او يقال حولها ، حتى اذا اجتمعت الاراء على شيء ، كان له ان يتناوله ، دون نكوص او اهمال ، لعلمه بالاجماع ، واقتناعه بصواب الرأي ، وان كانت المشاركة مما يعاب ، او تكون موضع مؤاخذة في كثير من الاحيان ...

لذلك كان ديوان : « بين الاعاصير » مشاركات وجدانية واخوانية بحتة ، شارك فيها الشاعر بقلبه ولسانه ، جل اصدقائه الذين شاطروه الحياة ، وان اغفل منها كثيرا ، مما شكل اثارا جليلة في حياته ، وطبعه بطابع جميل ، كان يسعى اليه الشاعر دائما ، وهو الحب الذي برزت نبضاته من خلال قصائده في هذه المجموعة الضخمة، وان كنت انا شخصيا ، ارى ان حذف جل هذه المشاركات قد جاء نتيجة لطبع الديوان بعد وفاة صاحبه ، او عدم استحسان المشرفين على طباعته باحتفال الشاعر بهذه الاخوانيات التي قعد لها اكثر وقته ، ولهث وراءها ، حتى كان يدفعه حبه الى ان يسهر الليل بطوله ، لاكمال قصيدة ، قال مطلعها الشيخ الصبان في ندوته الادبية بمصر الجديدة ، ويثلج صدره ان يلحق به في ارض المطار ليدفع اليه القصيدة كاملة، قبل ان يطير في بواكير الصباح ...

والامر الذي لا يختلف عليه ، او يتطرق اليه الشك ، هذه الانطباعات التي درج عليها الشيخ الاسمر في كل هذه الاغاريد العذبة التي امتلأ قلبه بها ، قبل ان يرسلها على القرطاس : فياضة ، حيية، زاكية ...

وفي قصائد « الاخوانيات » ما يغني عن ضرب المثل ، او اقامة الدليل ... فالشاعر حين يحيي الاستاذ محمد علي الطاهر ، او الاستاذ الماحي ، او يكتب الى الاديب العراقي ابراهيم الواعظ ، او مهدي رفيع مشكي ، او الدكتور عبد المنعم صبحي ، او اللواء صالح حرب ، او علي علوبة ، يجعل الحب هو العماد الذي تدور عليه المشاركة ، ويسير على طريق مرسومة ، عبدها بقلبه ، وخططها بوداده .

اهدى الشاعر : « ديوان الاسمر » الى صديقه الكبير ، فحياه بقصيدة ضمنها بحور الشعر : فقال الاسمر :

يا « محيطا » أهدي الي « بحورا» | هي من حسنها تموج رحيقا
أ « بحور » دبجتها أم بحار | يحتسيها الانام خمرا عتيقا
انا في لجها اغوص واطفو | غمرتني ولست فيها مفيقا
يا أخي بالعراق أدرك على مصـ | ـر أخا كاد ان يكون غريقا

كما يقول الشاعر لرفيع مشكي :

« رفيع » كرم اللـه | بـه « مصر » و « ايرانا »
عظيم من بني الفرس | عظيم بيننا شانا

فمـــن يسعـــد بلقيـــاه   يقـــل لاقيـــت سلطانـــا

والاسمر الذي جنح بكله الى « الاخوانيات » ، حتـــى حسبه القارىء له ، يغوص في المناسبة ، ويمشي مع تيارها ، يبدأ في : « الشمس » و « قصة الانســـان » و « راسبوتين » و « العفريت الشاعر » و « العصفور الصغير و « دنياي » و « ايـــن الهدوء » و « المأوى » و « بين العقل والباطن » و « صوت من القبور » و «بعد الخامسة والخمسين » و « حول المقادير » و « الله اكبر » و «العيد» و « تفريدة الصباح » ، بدءا يلفت النظـــر ، ويشد الانتباه .. فالشاعر ينظر الى « الشمس » نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرات الشعراء ، فهي في رأيه ، قد غزلت من لجة البحر هذا البخار الذي يتصاعد في هدوء ، ثم تذهب تنسج هذا الغزل سحابا ، حتى يبدو عجيبا وان كان هذا النسج يتكرر كل يوم :

غزلت مـن لجـة البحـر بخـارا   صاعدا كان علـى الارض عبابـا
غزلته فـي هـدوء ثـم راحت   فـي هدوء تنسج الغزل سحابـا
غزلتـه ، نسجتـــه ، لونتـــه   فبدا في افقـه شيئـا عجابـا
كـل يـوم تصنع الشمس لهـا   مـن عبـاب البحر غزلا وثيابـا

ولا يقل الشاعر في نظرته الى الحياة الهادئة عن نظرته الـى دنياه ، حين يعاتبها ، وينشد منها الهدوء ، وبخاصة انه اثر ان تكون دنياه بيته ، وصديقه كتابه :

عاتبتها حتـى مللـت عتابـي   دنيـا برمت بهـا وبالاصحاب
حتى هوى الاحباب أصبح زاويـا   عندى عشيته غاض مـاء شبابـي
فالآن بعـد انتهى عهـد مضى   دنياي بيتـي ، والصديق كتابي

على ان المتتبع للمسات الشاعر ، يرى الوانا جديدة من الشعر، ارتضاها الاسمر ، فكان منها هذا اللون الوعظي الذي رسم به ما تجري به الحياة ، وما يدور في فلكها ، فيفيض شعاعا على العقول ، ويعرف به الطريق الى الاصلاح او الانحراف :

فوق العقول امور في الحياة جرت   ففرقت بيـن شيطـان وقديس
جلت مقادير ربـي عـن مداركنا   سبحانه مـن عظيم الشأن قدوس

وللاسمر ، وقفات فـي : « الشرقيات » و « السياسيات » و « المصريات » و « السعوديات » ما احسبها بمختلفة عن شعره الذي قال له فيه الفيلسوف الراحل مصطفى عبد الرازق : « لشعرك تأثير في نفسي ، احسبه يفوق ما يفعل الشعر ، ذلك انـه فيض نفس احبها ، وقد يكون سحرا ذلك الذي ترسله نغما موسيقيا في اسلوب سهل ، فيسري في الارواح ، ويفجر العواطف خلالها تفجيرا » .

والواقع ، ان التعرض لشعر الشاعر ، وتحليله ، لا يمكن نصفته الا بمطالعته ، وان كانت دلالات الرقة ، وملكات السهولة اكثر من ان تحصى في شعره ... ويكفي ان تكون واحدة ، تنبىء عن هذه الاصالة، وتدل على هذه الملكة ...

زار الشاعر ، جلالة الملك فيصل ، وهو يوم ذلك امير ، فكانت هذه الرقة ، وكانت هذه العاطفة النبيلة :

حديثـــه السحـــر الحـــلا   ل هكـــذا سمعتـــه
واللـــه لا انســـاه فـــي   مصـــر غـــداة زرتـــه
ولســـت انســـى مـــا سمعـــ   ـــت منـــه او شهدتـــه
فعـــدت مفتونـــا بـــه   اقـــول فيمـــا قلتـــه
نعـــم الاميـــر « فيصـــل »   احببتـــه ، احببتـــه

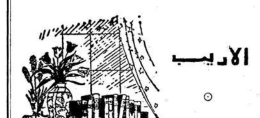
رحم الله صديقي الاسمر ، بقدر ما احسن الى العربية ، ومشى بي على طريق الرشاد ..

٢ ـ سجع الحمام فـي حكم الامام

امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام

جمع وضبط وشرح : علي الجندي ، محمد ابـــو الفضل ابراهيم ،

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العــادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

فـي الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابهـا سواء نشرت ام لـم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلـة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ المنزل ٢٢٥١٣٩

Tel : Dir : 223819 Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البيـر اديب

محمد يوسف المحجوب ـ ٥٠٨ صفحة ـ طبع ونشر مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة

اجتمع الثلاثة الاعلام : علي الجندي ، ومحمد ابو الفضل ابراهيم ، ومحمد يوسف المحجوب ، على ضبط وشرح ، كلام امير المؤمنين وابن عم النبي الكريم ، عليهما السلام ، لما يمتاز به « من تنوع المقاصد ، وسمو الالهام في مختلف الاغراض ، مع صدق الحق والتجربة ، حتى كان كل عبارة له عليها طابعه ، وكل حكمة صدرت عنه موسومة بتوقيعه » .

والواقع ان ما استوقف نظر الشراح الثلاثة ، قمين ، بأن يقف عنده الباحث ، وجدير بالالتفات اليه .. فقد كثر الجامعون لكلام الخليفة ، والراغبون في بعث تراث علي ، لما له من المكانة العظيمة في نفوس المؤمنين ، ولما يتسم به هو شخصيا ، عليه رضوان الله ، من التجلة والاعظام .. فذهب كثير من العلماء الى افراد كتب خاصة ، ودواوين مستقلة ، تجمع بين دفتيها ما قاله علي ، وما افاض به على المسلمين في كافة ديار الارض ، وان اصيب بعضها بالذهاب ، واكلته الايام اكثرها بانقضاء السنين والاعوام ، وبقي اكثر هذه الكتب واحفلها ، يحتل مكتبات العالم ويأخذ وضعه اللائق به .. فما اختاره الشريف الرضي ، والقضاعي ، والهادي كاشف ، لا تخلو منه مكتبة اديب ، غير الحكم القصيرة التي ظهرت في عدة كتب ، واخذت اسماء : الف كلمة ، ونثر اللآلي ، وغرر الحكم ودرر الكلم ، وبعض الامثال ، وطفافة بعضها ، فضلا عما نشره الاب لويس شيخو ، والسيد احمد رضا من خطب ومواعظ واقوال ، لم يسبق نشرها في كتب ، او اخذت وضعها في مجلد ...

ولكن هل انتهت حكم واقوال الامام عند هذه الكتب ، وغيرها من المتعارف عليها ... اعتقد ان هذا هو ما حدا بالمراجعين الثلاثة الى تيسير بعض الحكم التي جاء ذكرها في هذه الكتب وغيرها مما لم يطلع عليه المعنيون بالجمع والشرح والتبويب ، غير ما تعارف عند المسلمين، وتدارسوه بينهم ، واجمعوا رأيهم عليه ..

يقول الجامعون لهذا التراث : « ولكن بقي كثير من كلامه عليه السلام ، متفرقا في كثير من كتب الادب والتاريخ ، لا يقل روعة ونفاسة ، وصدقا وبلاغة ، عما ورد في هذه الكتب . على ان كثيرا مما جاء فيها يعوزه الضبط والشرح ، ويشيع فيه التحريف والابهام ، فرأينا ان نجمع شتات هذه الحكم في عقد يضم منها ما تفرق ، ونختار ما رجح عندنا انه من كلام الامام ، ومن نبع الهامه ، وشرعة بيانه » .

على اني وان كنت قد احسست هذا الاحساس البعيد من زمن ، فأردت ان استخلص ما اتفقت الاراء وجمع العلماء عليه ، من انه من لدن علي ، ومن نسج بيانه وتحريك لسانه ، الا انني قد راجعت نفسي مرارا قبل اقدامي على هذا العمل ، الذي يصاب غالبا ، بالنقد ، ويعتوره من الشك ما ليس يستطيع الانسان دفعه ، ولو كانت المصادر مجتمعة ، والاراء متفقة ، وذلك لاكثر من سبب ، قد يكون في مقدمتها : انه قيل على لسان علي الشيء الكثير ، سواء ما دفعت اليه السياسة العربية ، او دفع اليه حرص الشانئين والعائبين ، والمتربصين ، للنيل من امير المؤمنين ، وتلمس الوقيعة ان لم يصاحبها الدس ، ويعلو وجهها النفاق ، حتى انني وانا اطالع هذا الكتاب ، قد حمدت للشارحين ، انهم وقفوا عند الترجيح لكلام الامام ، والتوخي المستطاب في الجمع عند السياق ، او الشرح او التفسير ..

وليس أدخل في الظن ، او ارفع لهذا الاتهام من ايراد الشراح للمراجع التي اخذوا منها هذه الكلام ، خوف التأويل ، او حسبان الظن المعاب .. فالرجوع الى الالف المختارة ، والحكم القصيرة الواردة في كتاب نهج البلاغة ، وكذلك الحكم القصيرة الواردة في كتاب دستور معالم الحكم ، والحكم الواردة في كتاب البيان والتبيين، وكذلك الواردة في كتاب عيون الاخبار ، والواردة في كتاب الكامل ، والاعجاز والايجاز ، والتمثيل والمحاضرة ، واسرار البلاغة ، كل اولئك يضع حدا للتشكيك ، ويقطع خيط الاتهام الذي قد يربط بين هذه الاقوال ، وما يعقد حولها من غبار او يلابسها من اكفهرار ، او يدخل عليها من اهواء ، قد لا تحمد في كثير من الاحيان ، او يرغب فيها في كثير من المواقف ...

ولست بمستريب في هذا الذي اخذ به الشراح انفسهم من المضي في الطريق حسبما اتفق لهم من الرأي ، او حسبما جرى عليه عرف الشرح والجمع عندهم .. وبظني انهم خافوا اللوم او التجريح او الشك في النسبة او النسب ، فوقف ثلاثتهم الى جانب الحكم التي لم يثبت عليها الرأي ، او تكون موضع قال وقيل فقالوا : « ان شيوع هذه الحكم ودورانها في الكتب منسوبة اليه ، لما يبعد الشك في نسبتها اليه ، ويدنيها من كلامه ـ وان كان قد ورد بعضها منسوبا الى غيره ، او معزوا الى سواه ـ لانها اقرب الى اسلوبه ، وأدنى الى طبعه » .

غير انى « لا أستطيع ان امضي مع ما مضى فيه الشراح ، واسيغ هذه الحجية التي وقف عندها الجامعون .. الا أن يكون السلام قد حتم عليهم ان يقفوا هذا الموقف ، خوف النقد او الانقضاض .. وان كنت لا أود لهؤلاء العلماء ان يتركوا هذه الحكم المشهورة ، دون رجوع بنا الى مصادرها ، او وضع أيدينا على المنسوب ، والاصيل والدخيل ، ولا يكون الاعتذار بالتتمة والتكملة والاشباه والنظائر ، وما يناسب كلامه عليه السلام ، وينصب في قالبه ، ويحتذى حذوه ، ويتقبل منهاجه ... !

على ان الفقر الذي نصاب فيه في جملة المحققين ، يدعونا الى المطالبة بالمعاودة ، والغربلة والدقة .. والا سيذهب هذا التراث دون ان يقيض الله له هذه الجملة من العلماء للنظر فيه ، والرجوع اليه ، ويكفي ان يكون « ابو الفضل » في مقدمة هؤلاء الشيوخ الخلصاء ...

القاهرة

ابو طالب زيان

•

ذكريات من عالم المحاماة والقضاء

تاليف المستشار تادرس ميخائيل تادرس

المحامي او القاضي او المستشار ، كلهم يندمج في الحياة العامة ، ويعرف الناس في بؤسهم ونعيمهم ، في كذبهم وصدقهم ، في خبثهم وبراءتهم ، في شتى المآسي التي يصبها القدر عليهم ، او التي تثيرها غرائزهم وشهواتهم فتوقعهم تحت طائلة القانون وتجعلهم هدفا للعقاب ، ولكن ليس في وسع كل محام او قاض او مستشار ان يلتقط من تلك الحوادث والمآسي ما يعبر عن شخصيات اصحابها ، ويكشف عن مكنون نفوسهم ، ويميط اللثام من خلال عواطفهم واهوائهم وتصرفاتهم عن جوهر الطبيعة البشرية ، وان يدون هذا كله في كتاب ... يجب ان يكون المحامي او القاضي او المستشار على ثقافة واسعة ، ونظرة ثاقبة ، وموهبة في الملاحظة اصيلة ، وان تكون له قدرة على تخيل الواقع وتصويره وتسجيله تشبه تلك القدرة التي يمتاز بها الاديب الروائي الفنان .

وقد عرفنا في تاريخ الادب رجالا تفوقوا في ميادين السياسة والقانون ، وكانوا في الوقت نفسه ادباء وفنانين . امثال رئيس وزراء انجلترا « تشرشل » الذي اقدم على وضع قصة ، والوزير

الانجليزي « دف كوبر » الذي ترجم لبعض العظماء ، ورئيس وزراء فرنسا « ادوار هريو » الذي اولع بالموسيقي بتهوفن فوضع عنه اروع كتاب ، والمحامي الفرنسي « موريس جارسون » الذي استخلص من محاضر البوليس ومن مختلف القضايا التي صادفته قصصا زاخرة بالحياة ، وزميله المحامي « هنري روبير » الذي سجل اشهر قضايا التاريخ في مؤلفات احرزت شهرة عالية وجرى ذكرها على كل لسان .

هذه النزعة الادبية عند رجال السياسة والقانون في اوروبا ، لم الحظها في زملائهم عندنا الا نادرا . وهذا ما اجتذبني وراعني في كتاب « ذكريات من عالم المحاماة والقضاء » للاستاذ تادرس ميخائيل تادرس المستشار السابق بمحاكم الاستئناف والمحامي السابق بالمحاكم المختلطة .

في هذا الكتاب الفريد في نوعه ، المستقطر من خلاصة تجارب صاحبه ، الشبيه في بساطة اسلوبه وبعد مرماه بأجمل وأكمل نظائره من أعمال كبار رجال القانون والادب الغربيين ، في هذا الكتاب يعرض المؤلف طائفة من ذكرياته في نشأته وصباه ، وكيف كان مولعا بالقانون منذ نعومة أظفاره ، وكيف اقتحم في ثقة عالم المحاماة ، واصطدم بالموكلين وعركهم واستطاع في ضوء ما لاحظه عليهم واستخلصه من اخلاقهم وطباعهم ، ان يقف على اسرار النفس البشرية وينفذ الى أبعد اغوارها .. ويتطرق المؤلف بعد ذلك الى البحث في علاقة علم النفس بالقضاء ، فيبدع في هذا الفصل ابداعا ينم عن دراسة سيكولوجية وافرة ، تدعمها الحوادث والمشاهدات المنتزعة من صميم الواقع .. ثم يتحول الى النظر في المحاكم المختلطة ، فيشرح لنا كيف كانت انظمتها وتقاليدها ، ويؤكد ان التخلص من سيطرتها ونفوذها كان هو السبيل الاول نحو الحرية والاستقلال . ثم يحدثنا عن الصحافة وعلاقتها بعالم المحاماة والقضاء ، ويقول ان محرري الصحف لو تعمقوا دراسة القوانين وحيثيات الاحكام وأسباب الجرائم ودوافعها بدل الاكتفاء بمجرد ذكر تلك الجرائم وتسجيل وقائعها ، لاصبحت الصحافة ترتفع وترتقي ويصبح في مقدورها ان تسهم اسهاما ناجحا وفعالا في ردع الشرير عن شره ، وتهذيب الميول الجامحة ، والنوازع الشاذة ، والسمو بالفرد والمجتمع .

فانت ترى مما تقدم ان المستشار تادرس ميخائيل تادرس قد استحدث جديدا في الفكر العربي ، وان كتابه من الطرافة والعمق بحيث يجب ان يقرؤه وينعم النظر فيه كل قانوني وكل اديب بل كل مثقف يهوى المعرفة وينشد الحقيقة في مجالها اليومي الحي .

وقد اتصف هذا الكتاب وتناوله بالبحث والتحليل في الصحف والمجلات العربية اديبان نابغان هما الاديب السكندري والقصصي الكبير الاستاذ نقولا يوسف ، والاديب والقصصي الالمعي الاستاذ حسن فتحي خليل . وانا اضم صوتي الى صوتيهما واسجل هنا قيمة الكتاب وقيمة صاحبه الذي هو قانوني ضليع ، وهو في الوقت نفسه اديب نافذ البصر والبصيرة ، بل اديب وروائي وفنان .

ابراهيم المصري — **القاهرة**

•

١ ــ مخطوطات البحر الميت

في عام ١٩٤٧ اكتشف رعاة جوابون من البدو جلودا عريقة في القدم بكهوف قمران الواقعة في منطقة البحر الميت ، تشتمل على أسفار من التوراة وعلى كتب خاصة بالطائفة التي استقرت في تلك المغاور : فاحدث هذا الاكتشاف دويا هائلا في الاوساط العلمية وهبت لجنة من العلماء الاوروبيين الى دراسة هذه الجلود ، ووضع كل عالم منهم بلغته كتابا ، وتقدر الكتب التي صدرت بهذا الموضوع بنحو اربعة الاف كتاب باستثناء اللغة العربية .

شاهد مؤرخ الاردن الكبير الاستاذ محمود العابدي مدير دائرة الثقافة والفنون في وزارة الاعلام الاردنية هذا الفيض الزخم من الكتب الاجنبية فشق عليه ، وهو الغيور على أمته ، المتحمس لقضاياها ، ان تظل المكتبة العربية خلوا من هذا الكنز الثمين فاختار من هذا الفيض المتدفق كتابا وضعه العالم الرائد الاستاذ ميللر بروز عام ١٩٥٦ بعنوان « مخطوطات البحر الميت » ووطد العزم على نقله للعربية ، فشمر عن ساعد الجد وانجز المشروع بغيرة المؤرخ المحقق ووضع كتابا بعنوان « مخطوطات البحر الميت » وقد جاء في ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير.

وفي يقيني ، لولا اقدام الاستاذ العابدي على سد هذه الثغرة وتزويد الخزانة العربية بهذا السفر الجليل لظلت هذه الخزانة عطلا من هذه الطرفة الماتعة ولاصابنا عار شنيع من جراء هذا الاهمال .

واذا كان لي من رجاء فهو ان يتقبل مؤرخنا المحقق الاستاذ العابدي تهنئتي من الاعماق ، وهي تهنئة كل عربي واع ، وشكري هو شكر كل مثقف عربي على ما بذل من جهد مشكور في سبيل اثراء الخزانة العربية بهذه الملحمة ، ورجاؤنا ان يزود هذه الخزانة بمثل هذه الالوان التي تباهي بها لغتنا وتعتز بمثل هذه الشوامخ .

٢ ــ دراسات في الادب العربي والتاريخ

تميز الباحث العالم الاستاذ محمد عبد الغني حسن بعمق البحث واختيار موضوعات فريدة لم يطرقها باحث في المجالين الادبي والتاريخي . واختيار الموضوعية ان دل على شيء فانما يدل على سعة اطلاع الكاتب ورهافة ذوقه واختياره الموضوعات التي تفيد القارىء وتطلعه على طرف في أدبنا وعلى مطويات في تاريخنا تالدا وطريفا .

و « دراسات في الادب العربي والتاريخ » ، هذا الاثر الذي سخا به قلم الناقد الذواقة الاستاذ محمد عبد الغني حسن بستان يفيض بالفواكه الشهية ، والعناقيد اليانعة واني لانصح القارىء ، أيا كانت ثقافته ، ان يقرأ هذا الكتاب ، لتزداد معرفته ، وبعد ان يستمتع بفصوله سيشاركني ولا ريب في ازجاء استاذنا الجليل وأديبنا الكبير محمد عبد الغني حسن عطر التحية ويقول معي للاستاذ « أبي نبيل » : « اكثر من هذه الروائع .. اكثر ياطويل العمر ! » .

٣ ــ احمد فارس الشدياق

لو اتيح لي ان اعاصر احمد فارس الشدياق ، وسئلت عن رجل القرن التاسع عشر لاجبت بديهة وارتجالا انه أحمد فارس الشدياق ، هذا الرجل العجيب في ذكائه واطواره الغريب في رحلاته واسفاره ، وقصصه وأسماره !

ومهما كتب الكاتبون وألف المؤلفون عن شخصية الشدياق هذه الشخصية الظريفة المحببة فستظل غامضة على الباحثين ، ولغزا يحير ألباب المؤلفين .

وكان من اعجاب أديبنا الكبير الاستاذ محمد عبد الغني حسن بشخصية الشدياق ان صحبها طويلا وسلط عليها اضواءه وتعمق في دراستها ، فخرج بكتاب طريف اسماه « أحمد فارس الشدياق » . وفي يقيني ان هذا الكتاب أوفى دراسة جامعة عن هذه الشخصية المحيرة .

فليبارك الله جهد أديبنا النابغ الاستاذ محمد عبد الغني حسن وليطل في عمره ليظل منصفا لاقدار الرجال ، ومنوها بالاعمال التي اجترحها اولئك الاعلام الذين تزهو بادبهم لغة الضاد وتباهي وتفاخر بعلمهم ام اللغات .

٤ ــ القصة القصيرة في فلسطين والاردن

هذا الكتاب يشتمل على مجموعة من المحاضرات التي القاها الدكتور هاشم ياغي احد اساتذة الادب العربي في الجامعة الاردنية ، على طلبة قسم الدراسات الادبية واللغوية التي يشارف عليها معهد البحوث والدراسات العربية في الامانة العامة لجامعة الدول العربية .

وفي هذه المحاضرات تناول الدكتور ياغي الملامح البارزة للقصة القصيرة في فلسطين والاردن من عام ١٨٥٠ ــ ١٩٦٥ ، وقد مهد لهذا البحث بفصول تناول فيها الاستعمار والابعاد الاجتماعية في فلسطين والاردن والوسائل الثقافية من مدارس وصحف ومطابع واندية وجمعيات والمذاهب والمدارس الادبية .

وفي الواقع ان الدكتور هاشم ياغي يستحق التهنئة على هذا الجهد وليس هنالك من ماخذ عليه سوى اغفاله بعض مجموعات من القصص القصيرة التي صدرت بعد الكارثة الاولى في الاردن وتناسيه فهرست يتضمن اسماء الاعلام الذين ورد ذكرهم في كتابه الطريف ، ولعله يستكمل هذين المأخذين في الطبعة الثانية .

٥ ــ أغاني الليل

أغلب اغاني هذا الديوان نظمها الشاعر المعروف الاستاذ شكر الله الجر وأنا رفيق جنبه في ريو دجنيرو مدينة الربيع الدائم . ولقد ذكرتني كلمة الاهداء التي وشح بها اخونا شكر الله النسخة التي اهدانيها وهي : « هذه الاغاني التي ما انفكت تحملها نسائم الاسحار الى أعشاش الحب والجمال في المدينة الوردية .. وتفمغم قوافيها الامواج على شواطيء الجزر التي تزفرها .. هدية مني اليك وذكرى لايام سعيدة معك قطعناك على تلك الضفاف ... انها أحلام ! » .

أقول : ذكرتني كلمة الاهداء هذه بتلك الايام الدافئة .. والليالي الحالمة التي عشناها في هضاب سلفستري وجبل السكر ، مخمورين بالطبيعة الساحرة ، ومسحورين بالمناظر الخلابة التي تسبي العقول !

تضم دفتا هذا الديوان لوحات موشاة بالتلاوين الرائعة ، ومتميزة باغان خاطب بها شكر الله الليل ولبنان وعشيرات الصبا ، ولم ينس الطبيعة والقمر ، وكل هذه اللوحات تغري الناظر بالوقوف امامها والتملي من مفاتنها .

ولو قدر لك يا قارئي الكريم ان تقف على لوحات هذا الديوان وتقرأ المقدمة النفيسة التي خلعها الخطيب الساحر الاستاذ الياس ربابي عليه لقلت مع « جان كوبو » : « ثمة كتب يجب تذوقها فحسب ، واخرى يجب ازدرادها دفعة واحدة ، وبعضها (وهي قليلة العدد) يجب مضغها ! » .

ومن هذه الفئة القليلة « أغاني الليل » انها حقا لشعر !

٦ مع طه حسين

قامت العلاقة الروحية بين الدكتور طه حسين والكاتب المعروف الاستاذ سامي الكيالي عندما كان الاستاذ سامي يصدر مجلة شهرية راقية باسم « الحديث » في حلب الشهباء ، وكانت مسرحا لاقلام فئة من كبار أدبنا المعاصر في عدادهم عميد الادب العربي .

وظلت تلك الاصرة الروحية تقوى وتشتد حتى أسفرت عن كتاب قيم طريف صنفه أديب الشهباء الاستاذ الكيالي عن صديقه عميد الادب العربي اسماه « مع طه حسين » وأهداه الى قرينة الدكتور طه السيدة النبيلة ، والزوجة البارة المثالية التي احاطت قرينها بعطف نادر المثال، وكانت له نورا بعد ظلمة وانسا بعد وحشة ونعمة بعد بؤس !

ولم نستغرب هذه المأثرة التي اجترحها اخونا الاستاذ سامي الكيالي بما له من مرؤة وشهامة وعزة ووفاء !

٧ ــ النار والطين

هذا ديوان طريف أضفاه الاديب الشاعر الاستاذ راضي صدوق على أدبنا المعاصر ، وقبله أضفى ديوان « كان لي قلب » وديوان « ثائر بلا هوية » .

وحسبي في تقديم ديوان « النار والطين » ان اشرك القارىء في اول لوحة شعرية صدر بها راضي ديوانه هذا بعنوان « على أسوار بابل العصر » ليقرأ شعرا يفيض بالغيرة على بلد طهور استباح العلج مقدساته ، وداس على حرماته :

نحن منفيون ، يا أرض ، أتينا من قباب الله من القدس القديمة
ليس في أعيننا رجس ، وما في أرضنا روح زنيمه
مثلما كان بنو يعقوب
غرقى في وحول العار ، في ليل الخطيئه .
ما أقمنا هيكلا للفسق ، لم نرجم بريئه
ما قتلنا الله ، لم نعبد عجولا ذهبيه
لم نصعد للشياطين ضحيه .

نحن منفيون يا بابل ، جئناك جياعا
سرقت موسمنا جرذان يعقوب .. بغاياه اللعينه
خرجت من قمقم التاريخ ، تجتر بقاياه ، تصب
الزيت والنار على الموتى الرماد
تزرع الارض أفاعي وجراد
ألف « راحاب » بفيه
أسلمت « يوشع » نهديها ، وباعته المدينه !

افتحي الابواب يا بابل ، ان الليل طال
رضعت أكبادنا الشمس ، وعافتنا الدروب
نحن طوفنا متاه الارض ، ردنا الريح جوابين في عرض البحار
أرخت الريح مراسينا وألقينا الشراع
عبثا رحلتنا عبر المحال
أبدا يجترنا الوهم ، ويطوينا شروق وغروب
ما لنا الا القرار !

افتحي الابواب ، يا بابل ، جئناك أسارى طائعين
اطفيء أعيننا بالليل ، شدينا الى القيد اللعين
نحن جئناك أسارى طائعين !

والقصيدة كلها على هذا النمط العالي من الشعر المور بالتحدي والاعتزاز والفخر !

٨ ــ جراح جديدة

في هذه الجراح يصور لنا الاستاذ عيسى الناعوري العدوان الاسرائيلي الغاشم على الاشلاء الباقية من الوطن المغصوب ، وقبل هذه المرة

انتضى الاستاذ الناعوري قلمه وصور النضال العربي في الوطن السليب بمجموعة من القصص بعنوان « خلي السيف يقول » و « بطولات عربية من فلسطين » و « بيت وراء الحدود » ، وفي هذه الرواية صـــور الكاتب البارع المأساة العربية الاولى واحداثها في فلسطين عام ١٩٤٨ .

والجراح الجديدة هي صنو الجراح الاولى التي أثخنت قلـب فلسطين واجهزت عليه في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ .

واذ نهنيء أخانا الاستاذ عيسى على هذا الاثر القومي النفيس نرجو ان يوحد روايته الاولى « بيت وراء الحدود » وروايته الثانيـة « جراح جديدة » في رواية موحدة تروي فصولها تفاصيل الكارثة من الفها الى يائها وتعالج أسبابها وما سبقها من مؤامرات رخيصة علـى الوطن المغصوب ، والشرف المعطوب .

٩ ـ النواعير ـ الجزء الاول

حملت النخوة الاديب الشاعر الاستاذ توفيق اليازجـي صاحب « دار الرائد » الحلبية على طبع الجزء الاول من كتاب « النواعير » وهـو مجموعة مقالات بقلم الاستاذ جبران مسوح صاحب مجلة « الاخاء » السورية ونزيل الارجنتين .

ولقد أبى الوفاء الا ان يستهل الاستاذ مسوح هذه المجموعة بكلمة رقيقة تذكر فيها (نواعير) حماة مسقط راسه وقال فيها :

« اذا كانت (النواعير) لا تفخر بي ، فأنا أفخر بها !

ان صوتها لا يزال في أذني ، وها انا انقله ـ بوداعته وشعبيته وعروبته ـ الى اذن الزمن ! » .

وليتاكد أخونا النازح الغريب الاستاذ جبران ان نواعير مدينتـه الاولى ما زالت تحن الى فتاها العبقري ، وتفخر بنفثات قلمه ، وترقب ايابها اليها في القريب العاجل !

١٠ ـ مصـَرع العظيـم

هذا عنوان المرثاة التي نظم عقدهـــا الاديب المعروف الاستاذ توفيق اليازجي في رثاء النسر المحلق الصديق المرحوم يوسف اليازجي احد دعامات العروبة في المهجر . وابيات هذه المرثاة تموج بالعاطفة المشبوبة، وتفيض بالحزن على رجل عظيم خسر فيه الوطن العربي الكبير فارسا مجليا في الدفاع عن قضاياه ، وسياسيا واعيا عرف كيف يخدم وطنه ويدافع عن الظلامات التي أصابته من العلج بمشاركة اخوان غيارى أمثال فارس الدبغي وغطاس خوري وشفيق عماد والشاعر القــروي وفرحات والدكتور خليل سعاده وحسني غراب ونصر سمعان ونظـير زيتون وميشيل مغربي وموسى حداد وغيرهم من دعامات العروبة فـي المهجـر .

١١ ـ محاجـر فــي الكهـوف

أبى قلم الاديبة الكبيرة الاستاذة ثريا ملحس الا ان يسخو علينا بطرفة جديدة في شهر رمضان المبارك تكون وسيلة للترفيه عــن النفوس المكدودة واداة للتسرية عن القلوب المحروبة بعـد عدوان الخامس مـن حزيران ١٩٦٧ .

و « محاجر في الكهوف » اسم اختارته آديبتنا الاريحية اسمـــا لشعر (المرحلة الثالثة) وقـد أهدته الى المشردين المعذبين من عـرب فلسطين والى امها التي تركتها وحدها فـي المحاجر تصوغ صخـور امها ، وتفك أغلال سجونها .

واللوحات التي حزمتها اديبتنا الفيلسوفة المتأملة في طرفتهـا الجديدة (صور) رائعة جديرة بالقراءة والتامل والتملي من قسماتها ، اذ ان لكل لوحة حكاية .. ولكل صورة قصة ..

و « ثريا » ان نظمت شعرا فانما تنظمه بدافع مـن التأثـر والالم ورهافة الحس ، وهذه (اللوحات) التي حزمتها « ثريا » في ديوانها الجديد تحتاج الى قاريء يدرك أهدافها وأبعادها ، ويكشف عــن جراحات قلب ظلمه المجتمع .. وذوو القربى .. ومهما حاولت « ثريا » أن تغير من ماهيتها وطبيعتها وجبلتها فستظل تلك الانسانة الشاعرة التي يرعبها الظلم ، ويفزعها العدوان ، ويؤذيها هضم الحق ! وستظل « ثريا » تنشد نفسها قول شاعرنا « أبو القاسم الشابي » عليـــه رحمـات اللـه :

والشقي الشقي من كان مثلي   في حساسيتي ورقـة نفسـي !

وأخيرا .. لتتقبل الاستاذة ثريا ملحس تهانينا من الاعماق علـى هذه المعلمة الشعرية الوانا جذابة شبيهة بالوان قوس قزح !

١٢ ـ الوان فولكلورية من وادي الفرات

من أبرز صفات الاديب الباحث الاستاذ عبد القادر عياش ، المحامـي المعروف في دير الزور وصاحب مجلة « صوت الفرات » وعضو لجنة الفنون الشعبية في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب في الجمهورية العربية السورية ، الوفاء لكل ربع من ربوع العروبة ، والتغني بموطنه الفرات وتخليده بالوان فولكلورية صور فيها موضوعات محلية طريفـة قد لا تخطر ببال باحث او حامل قلم . فأرخ الاستاذ عياش للمصيبة في حياة العرب وللطير في حياتنا وتراثنا وللتبغ في حيـــاة الناس وللغزل في الفرات ، وللالعاب الاهلية في دير الزور وللمآكل والمشارب .. حتى الملح والخبز والآنية ومؤونة البيت جاء الاستاذ عبد القادر في حديثه عنها !

والواقع ان الاستاذ عياشا خلع على خزانة ادبنا المعاصر موسوعة ذات الوان فولكلورية طريفة خليقة بتقدير الدارسين واطراء الباحثين.

عمان ـ الاردن   البدوي الملثم